القسم الثالث

الملك

١٢-القتال من أجل مكة

سقوط حائل أضاف مساحات صحراوية واسعة إلى أراضي ابن سعود، وأبهة جديدة إلى بلاطه، ولكنه لم يضف إلى دخله شيئاً، بل إن حملة حائل تركته أكثر فقراً، وقد طلب بعد الحملة مقابلة كوكس، الذي أصبح الآن المفوض البريطاني السامي في العراق، ولعله أراد أن يزاد له في معونته البريطانية، خاصةً وأن البريطانيين كانوا قد وعدوه المال والسلاح لمحاربة ابن رشيد، وها هو الآن قد قضى على حكم آل رشيد دون عون من بريطانيا، ولكنه لم يكن يدري أن نظرة الحكومات الغربية لمثل هذه الأمور تختلف في وقت السلم عن وقت الحرب.

وافق كوكس على مقابلة ابن سعود، لأسباب تخص كوكس نفسه، ذلك أن بريطانيا كانت أكملت تنظيم الهلال الخصيب سياسياً بطريقة كان كوكس يرى أنها لن ترضي ابن سعود، فقد نصبت بريطانيا الأمير عبدالله ابن الشريف حسين أميراً، على إمارة شرق الأردن، ودعمته بقوات بريطانية،وكذلك أعلن ونستون تشرشل- وزير المستعمرات البريطانية- في مؤتمر عقد في القاهرة عام ١٩٢١م، تنصيب الأمير فيصل- أحد أبناء الشريف الأربعة- ملكاً على العراق- وكان اتخاذ كل هذه الخطوات بهدف إرضاء الشريف حسين، ولورانس. ولكن الشريف كان غير راض حتى بعد تنصيب ابنيه حاكمين في شرق الأردن، وفي العراق، والواقع أن هذه الترتيبات التي أجراها البريطانيون

في الهلال الخصيب كانت ناجحة إلى حد بعيد، فقد بقيت إمارة شرق الأردن، وبقيت المملكة العراقية، قائمتين بعد انتهاء فترة الانتداب عليهما- ذلك أن الأمير عبدالله حكم مدة ثلاثين عاماً، حتى اغتياله في عام ١٩٥١م، وما زال حفيده الملك حسين يحكم الأردن حتى الآن[١]. وظل فيصل حاكماً على العراق حتى عام ١٩٣٣م، وظلت أسرته من بعده على عرش العراق حتى عام ١٩٥٨م، عندما قتلت قوات الديكتاتور عبد الكريم قاسم، حفيده الملك فيصل، منهية بذلك الحكم الملكي في العراق.

أصبحت لابن سعود حدود طويلة مع كل من إمارة شرق الأردن والمملكة العراقية بعد استيلائه على حائل، وكانت هذه الحدود مثل حدوده مع الحجاز غير مرسمة بطريقة واضحة، الأمر الذي سيؤدي إلى مشاكل مستقبلية بين ابن سعود وجيرانه الهاشميين. وعليه فقد كان غرض كوكس من اجتماعه بابن سعود هو محاولة حثه على الاعتراف بالدولتين الهاشميتين، اللتين أصبحتا جارتين شماليتين له، وكذلك الاعتراف بحدودهما معه.

إضافة إلى هذه العوامل، فقد حدث -بعد سقوط حائل- ما يدعو إلى سرعة عقد اجتماع بين ابن سعود وكوكس- ذلك أن قوة من الإخوان تقدر بحوالي ألف وخمسمائة رجل كانت قد زحفت شمالاً، وعبرت حدود إمارة شرق الأردن، وهاجمت قرية تبعد عشرين ميلاً عن العاصمة عمّان، وقتلت معظم سكانها، ولم يكن أمام طائرات ومدرعات القوات البريطانية المرابطة في الإمارة إلا مهاجمة هذه القوات الغازية، حيث قتلت منهم أعداداً كبيرة، وفر منهم من

(١) لقد مات الملك حسين بن طلال عام ١٩٩٨م، وخلفه في الحكم ابنه الملك عبدالله الثاني بن الحسين.

بقي على قيد الحياة ليواجهوا غضب ابن سعود، الذي رمى بهم في السجن عقاباً لهم على القيام بهجوم من غير أوامر منه.

اجتمع كوكس وابن سعود في ميناء العقير الواقع على ساحل الأحساء، وهو الموقع نفسه الذي أمضيا فيه اتفاق عام ١٩١٥م[١]، وكان اجتماعاً مهماً، ومشهوداً، فقد شهده بعض المراقبين، كان من بينهم أمين الريحاني -الشاعر الأمريكي المنحدر من أصل سوري-[٢] وفي ذلك الاجتماع حدث أمران مهمان: فقد وافق ابن سعود ولأول مرة برسم خط على الخارطة يحدد حدود «مملكته» هذا هو الحدث المهم الأول، أما الحدث الثاني فهو أنه وردت ولأول مرة أيضاً كلمة مهمة جداً، في معرض الحديث عن بعض شؤون مملكته- تلك الكلمة هي «نفط» ، زيت، بترول.

جاء الريحاني إلى العقير في معية ابن سعود، وكان قد التقاه في الصحراء، وركب معه إلى العقير، وكان وجود الريحاني مهماً إذ إنه- وخلافاً لمذكرات شكسبير المقتضبة -قد ترك لنا وصفاً مفصلاً لتجربته تلك، ولرحلته الصحراوية مع ابن سعود، فوصف مسير ركب الأمير ليلاً، وكيف أنهم كانوا يعلنون عن مقدمه، بصيحة معينة، هي كما قال الريحاني «يا سُعيد»، وربما أخطأ الريحاني في فهم هذه الكلمة، والتي على الأرجح «آل سعود» وأياً كانت الكلمة فقد كان ابن سعود دائماً على رأس الركب، بقامته الفارعة، راكباً جملاً أصيلاً، طويلاً، من العمانيات حتى يسهل على الناس التعرف عليه، وحوله

(١) تعرف هذه الاتفاقية بـ (بروتوكول العقير)، وكانت في ١٢ ربيع الآخر ١٣٤١هـ، الموافق ٢ ديسمبر ١٩٢٢م. أما الإشارة إلى أن هذا هو الموقع الذي تم فيه اتفاق عام ١٩١٥م، فليس صحيحاً لأن ذلك الاتفاق يعرف بمعاهدة دارين، وقد أشرنا إليها من قبل.

(٢) الصحيح أنه من بلد الفريكة في لبنان.

حراسه، والشيوخ، وضباط جيشه، ومن خلفه يسير عدد آخر من الحراس، ومعهم الخدم بملابسهم الزاهية، وهم يحملون السيوف وفي الركب أيضاً جماعة من أمراء آل رشيد. وكان ضمن الركب عدد آخر من الخدم يقود أمامه قطيعاً من الضأن، وعدداً من الجمال محملاً بالخيام، والأبسطة، وقرب الماء، وأدوات الطهي. هذا الركب الحاوي لهذا الجمع الكبير كان يتحرك في بطء ودونما عجلة.

ومضى الريحاني واصفاً معسكر ابن سعود في العقير، ومعسكر كوكس وكيف كان معداً بطريقة إنجليزية تقليدية، ففي الوقت الذي كانت فيه خيم ابن سعود معدة بالأبسطة، وعليها سروج الجمال، ليتكئ عليها الجالسون، كانت خيمة كوكس معدة بالمناضد، والكراسي والسرائر السفرية. وحمام متنقل، وحتى السجائر كانت موجودة فيها، وربما كل ما هو ممنوع، ومحرم على المسلمين، وقال الريحاني إن كوكس كان ضيفاً على الأمير، وأنه -أي كوكس- جاء متأخراً ثلاثة أيام، الأمر الذي تضايق منه بعض أتباع ابن سعود، وإن كوكس وجماعته جاؤوا إلى دعوة عشاء ابن سعود، بالزي الرسمي المخصص لمثل تلك الدعوات فكانوا إنجليزاً بحق، فخورين ومتمسكين بتقاليدهم البريطانية.

توصل كوكس الذي جاء ممثلاً لحكومة العراق، مع ابن سعود إلى اتفاقية ترسيم للحدود بين أراضي ابن سعود، والكويت، والعراق- كانت اتفاقية بسيطة، ومعقولة، احتوت على أمر جديد، وهو إقامة منطقة محايدة بين حدود نجد والعراق والكويت، وهي منطقة حرة يمكن للرعاة رعي سوائمهم فيها، واتفق الجانبان على عدم إقامة تحصينات على الحدود. ولأن الاتفاقية

كانت بسيطة ومعقولة - كما قلنا- فقد استمرت المناطق المحايدة التي أنشأتها قائمة، ومعترفاً بها حتى اليوم[1].

ومن نتائج هذا الاجتماع الثانوي... وجود صورة كوكس، وابن سعود، وهما في العقير، جالسين على كرسيين في الرمال خارج خيمة ابن سعود- وفيها يظهر ابن سعود بقامته المديدة المستقيمة، وبجسمه الضخم لابساً عباءته العربية، وعلى رأسه «شماغ» مخطط، وبجانبه كوكس، الذي كان يبدو شاحباً، ومتعباً، وصغيراً إلى جانب ابن سعود، وكان مرتدياً زي رجال الطبقة الوسطى البريطانية، الحذاء، والبدلة، وربطة العنق، والقبعة.. إلخ. وكان يقف وراءهما في الصورة رجل بدين مرتدياً زياً أوربياً، وخوذة شمسية، وهو يبتسم ابتسامة عريضة، ويضع أحد يديه على ظهر كرسي ابن سعود، والأخرى على ظهر كرسي كوكس، هذا الرجل هو الميجور (رائد) فرانك هولمز الذي كان يدعي أنه من هواة جمع أنواع الفراشات النادرة، ولكن اتضح فيما بعد أنه ممثل لمؤسسة تعمل في مجال التنقيب عن البترول.

والميجور هولمز هذا رجل نيوزيلندي، يعمل لدى مؤسسة صغيرة، تسمى «المؤسسة الشرقية العامة» The Eastern and general Syndicate والتي أسست في لندن عام ١٩١٩م، ذلك أن الفترة التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الأولى شهدت اهتماماً واندفاعاً نحو التنقيب، واستخراج البترول، بعد أن وضح جلياً أن العالم يتجه نحو استعمال البترول كمصدر للطاقة بدلاً من الفحم... وكانت الدلائل تشير إلى احتمال وجود مخزون بترولي في منطقة الخليج بشقيها العربي والفارسي، فهناك شركة النفط الأنجلو- فارسية تعمل في مجال

(١) عرفت هذه المناطق بالمحايدة ثم المقسومة، وقد تم تجاوزها حالياً بالاتفاق سلماً حيالها.

استخراجه من الآبار في فارس منذ ١٩٠٩م. كما أن هناك دلائل لوجوده أيضاً في جزر البحرين، وصحراء الكويت، الأمر الذي جعل هولمز يقوم بزيارة لكلا البلدين في محاولة للحصول على امتياز للتنقيب عن النفط فيهما لمصلحة مؤسسته. ولقد وجد هولمز طريقة إلى العقير مدعياً أن هناك نوعاً فريداً من الفراشات يعيش في منطقة الأحساء فنصب لنفسه خيمة بين معسكر كوكس، ومعسكر ابن سعود- ولسماحة الرجلين، وحسن خلقهما لم يطلبا منه مغادرة المكان، وسمحا له بالبقاء.

كان وجود هولمز أمراً محرجاً لكلا الرجلين. فقد صرح بأنه إنما يسعى في الواقع ليس لجمع الفراشات وإنما للحصول على امتياز للتنقيب عن البترول في منطقة الأحساء- وكان سعيه هذا أمراً محرجاً للسيد كوكس الذي كان يعلم جيداً أن الشركة الأنجلو - فارسية مهتمة بالأمر نفسه، وهي شركة تحظى باهتمام الحكومة البريطانية، والتي هي في الواقع مساهم رئيسي فيها- وعليه لم يكن أمام كوكس إلا أن ينصح ابن سعود بأن من الأفضل له في المدى البعيد منح امتياز التنقيب للشركات الكبرى التي تحظى بسند دولها، التي تسمح لها إمكاناتها الكبيرة باستغلال البترول إن وجد بدلاً من الشركات الصغيرة ذات الإمكانات المحدودة التي قد لا تتمكن من استغلال البترول، بل تقوم ببيع حقوله لشركة كبيرة أخرى، أو حتى لشخص مقتدر.

كان حرج ابن سعود أسوأ من حرج كوكس، فهو لا يدري لمن يمنح امتياز التنقيب عن البترول، بل إنه لم يكن في الواقع متأكداً إن كان منح الامتياز أصلاً هو الأمر الأصوب، ذلك أن منحه سيجر إلى بلاده الأجانب بكل ما يحملون من مؤثرات سلوكية وخلقية، مما قد يهدد الكيان الاجتماعي والخلقي لرعاياه. ومما قد لا يرضي علماء بلاده.

ولكن حاجته الماسه إلى المال هي التي جعلته يقبل عرض التنقيب المقدم من هولمز وربما كان مدفوعاً أيضاً باعتقاده أنه قد لا يوجد بترول في صحاريه تلك، وإن البحث عنه سيكون جهداً ضائعاً، ولذا قبل عرض هولمز على قلته، وهو مبلغ ألفين من الجنيهات سنوياً مقابل الحق عن التنقيب- وعلى الرغم من ضآلة المبلغ فإن مؤسسة هولمز عجزت عن دفعه، خاصة عندما تبين لجيولوجيها أنه لا بترول في الأحساء فتوقف التنقيب، وتوقفت الشركة بعد سنتين فقط من منحها الامتياز، ولم يُنقب عن البترول في تلك الأصقاع ثانيةً إلا بعد مضي فترة عشر سنوات، ظل خلالها ابن سعود فقيراً محتاجاً إلى المال دائماً[1].

ازدادت حاجة ابن سعود للمال في السنوات القليلة التالية، خاصةً بعد أن أخطرته الحكومة البريطانية في خريف عام ١٩٢٣م بأنها ستتوقف عن دفع المعونة المالية له، وللشريف حسين أيضاً، ابتداءً من ربيع العام القادم فقد ضاقت بريطانيا بدفع مثل تلك المعونات لحلفائها من الحكام العرب خاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وهزيمة الأتراك، وبعد تنصيبها لبعض الحكام العرب المستقلين هنا وهناك، وإمضائها معهم لاتفاقيات حماية لهم من أي عدوان خارجي، مما جعل من دفع المعونات المالية لبعضهم أمراً غير ضروري، مضافاً إلى ذلك، فإن بريطانيا كانت تعاني من مصاعب اقتصادية جمة بعد خروجها من الحرب وهي منهكة تماماً، كما أنها كانت تشعر بأن

(١) للتعرف على المزيد حول دور هولمز وغيره من مندوبي الشركات المتعاملة في النفط، يمكن الرجوع إلى كتاب: مغامرات النفط العربي، لجون فيلبي، وترجمه عوض البادي، ومن مطبوعات مكتبة العبيكان، لعام ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

الناخب البريطاني العادي، ونواب الأمة في البرلمان، قد لا يرضون عن تبذير أموال الدولة بهذه الصفة، والبلاد تمر بظروف مالية صعبة، ثم إن الحكومة البريطانية كانت ترى -والحرب قد انتهت- أن سياسة دفع المعونات المالية كانت سلاحاً فاعلاً أيام الحرب، ولكنها الآن في وقت السلم ليست إلا ترفاً، وإسرافاً، وتبذيراً للمال العام، وعليه كان لا بد من التوقف عن دفعها.

كان توقف دفع المعونات المالية عن الشريف حسين هو المسمار الأخير الذي دق في نعش حكمه، فما هي إلا سنة واحدة، ويدخل ابن سعود مكة المكرمة فاتحاً ظافراً. فقد حاولت بريطانيا حل الخلافات بين الشريف حسين وابن سعود مباشرةً بعد توقفها عن دفع المعونات المالية لهما. وذلك حينما طلبت منهما إرسال مندوبين عنهما يحضران اجتماعاً يعقد في الكويت لهذا الغرض. تم هذا الاجتماع الذي كان برئاسة كوكس، وعقدت جلسات مطولة استمرت طيلة فصل الشتاء، ولكنها لم تسفر عن شيء. واستمرت الخلافات بين الرجلين -الشريف حسين وابن سعود- وأدت في النهاية إلى الصدام المسلح الذي وقع بينهما، والذي بدأ بمهاجمة ابن سعود للشريف حسين، وليس من المعقول أن نرجع هجوم ابن سعود ذاك إلى عامل واحد هو توقف بريطانيا عن دفع مبلغ الخمسة آلاف جنيه التي كانت تدفعها له شهرياً، فهناك أسباب وعوامل أخرى أكثر أهمية لقيام ابن سعود بذلك العمل، صحيح أن توقف الدفع جعل ابن سعود لا يخشى، ولا يهتم كثيراً بمسألة رضاء بريطانيا، أو عدم رضائها عن تصرفه ذاك، وجعله أكثر حاجة للمال، الذي كان ضرورة قصوى لبقاء أملاكه متماسكة قوية وربما فكر ابن سعود في أن سيطرته على الحجاز ستمنحه دخل الحج، وهو مورد مالي مهم، لا يمكن إهماله، أو غض

النظر عنه، وسواء أكان ابن سعود مدركاً لهذا الخيار، أم غير مدرك، فقد كان خياره، وهمه الأول هو الحفاظ على تماسك أملاكه، وعدم السماح لتفشي عوامل التفكك فيها، فتعود إلى الفرقة والفوضى مرة أخرى.

أما الأسباب الأخرى لقيامه بحركته تلك ضد الشريف، فقد أمده بها الشريف نفسه، ويمكن أن نجملها فنقول: إن عدم توخي الشريف للحكمة في كثير من تصرفاته هي التي عجلت بسقوطه، فقد كان في حالة نفسية سيئة، كادت أن تؤدي به إلى ما يشبه جنون العظمة، بسبب سياسة بريطانيا نحوه، وتعاملها معه، فقد شجعته بريطانيا على التعلق بآمال طموحة جداً، ومَنَّتْهُ الأماني، ووعدته الوعود التي يسيل لها اللعاب. ثم شرعت في وضع العقبات شيئاً فشيئاً في وجه تحقيق تلك الأماني، والوعود. فكان شعوره بالإحباط، وخيبة الأمل، وبالخيانة وعدم الوفاء بالعهود، وبالغضب الشديد على بريطانيا، الذي كاد أن يؤدي به إلى حافة الجنون. وعلى الرغم من أن بريطانيا لم تعطه وعداً مكتوباً بأنها ستسانده ليكون ملكاً على كل البلاد العربية، إلا أن محادثات، ومكاتبات رجالها في القاهرة ولندن، كانت توحي بمثل هذا الوعد، وقد ضمن له البريطانيون في تلك المكاتبات-وحسب طلبه -استقلال كل الجزيرة العربية، ومعظم أراضي العراق، وسوريا- والتي شملت لبنان وفلسطين، بل إنهم أشاروا إلى تلك البلاد على أنها «مملكة عربية»، وبسبب هذا الضمان، ولكونه قائد الثورة العربية ، فقد افترض أن هذه المملكة ستكون له، ولأن البريطانيين كانوا في حاجة إلى خدماته في أثناء الحرب، لم يجرؤوا على إخطاره بأن حلمه مستحيل التحقيق، وأنه لابريطانيا، ولا غيرها من الدول، تستطيع أن تجعله ملكاً على هذه الرقعة الشاسعة من الأرض، وأنه

لا يمكن لابن سعود ولا السوريين، ولا العراقيين، أو الصهيونيين أن يقبلوه حاكماً عليهم، مضافاً إلى كل ذلك، فإنه لم يكن باستطاعة البريطانيين، إبداء رأيهم صراحةً فيه، بأنه حاكم غير مقتدر. وإنما على العكس من ذلك، نمقوا رسائلهم له، بعبارات التزييف والإطراء، وصاغوها بأسلوب لا هو عربي، ولا هو بريطاني، وإنما بأسلوب يمكن وصفه بأنه أسلوب «وايت هول» أو (المبنى الأبيض) الشرقي.

فمثلاً بدأت إحدى تلك الرسائل الموجهة إلى الشريف، بالعبارات الآتية: «إلى السيد الشريف، الطيب المولد، سليل الأشراف، تاج العز والسؤدد، سليل الشجرة المحمدية، وفرع الشجرة القرشية، صاحب الرتبة العلية، السيد بن السيد، الشريف بن الشريف، المفخم، صاحب الفخامة، الشريف حسين، سيد الأكثرين، أمير مكة المكرمة، قطب المؤمنين وقبلتهم، أنزل الله بركته على الناس أجمعين» إ.هـ.

وهناك من الأسباب ما يدعو إلى أن الشريف لم يلق لمثل هذا الإطراء بالاً، وإنما عده ترهات فارغة، هي ربما طريقة البريطانيين الغريبة لإبداء حرصهم الشديد على تكريمه، وعدم اهتمامه بهذه المبالغات في الإطراء عليه واضح في ردود رسائله إليهم، وقد توالت الأحداث فيما بعد، لتهز ثقته في بريطانيا، ولتجسم إحساسه بالمرارة، والشك في البريطانيين إلى الحد الذي جعله يظن في يوم من الأيام أن القنصل البريطاني في جدة كان يعمل لدس السم له، وقد كانت تلك الأحداث صدمةً كبيرةً له، حطمت كل طموحاته وتطلعاته، فها هي بريطانيا، وقد عقدت اتفاقاً سرياً مع فرنسا، وروسيا قسمت بموجبه بلاد الهلال الخصيب مناطق نفوذ بينها وبين فرنسا، وها هي تضمن لابن سعود استقلاله السياسي، ثم ها هي تعد الصهيونيين بفلسطين وطناً قومياً لهم،

وكلها أمور لم يكن الشريف ليرضى عنها، أو يقبلها، كانت مرفوضةً تماماً من جانبه، ليس هذا فحسب، بل إنه لم يكن راضياً حتى على تعيين ابنيه -عبدالله، وفيصل- حاكمين على شرقي الأردن، والعراق.

كان القنصل البريطاني في جدة هو ريدر بولارد رجل سريع البديهة، حاضر النكتة، وكانت روحه المرحة تتجلى في رسائله إلى وزارة الخارجية ، والتي كان يعرض فيها لسلوك الشريف حسين الشاذ أحياناً، والمثير للضحك أحياناً أخرى، وقد بقيت دعابات بولارد تلك حبيسة رسائله القابعة في الأرشيف البريطاني، ذلك هو بولارد القنصل البريطاني الذي اتهمه الشريف بمحاولة دس السم له، وقد أبدى بولارد فيما بعد أسفه على تعليقاته التي كان يسخر فيها من الشريف وإن دلت رسائل بولارد تلك على شيء، فإنما تدل على أن الكل في وزارة الخارجية البريطانية لم يأخذوا آنذاك لا الشريف ولا تصرفاته بجدية.

كان أثر تصرفات الشريف حسين الشاذة، وأثر أسلوبه في الحكم، شديداً على رعاياه عامة، وعلى الحجاج بصفة خاصة، فقد عاش تحت اعتقاده الخاطئ بأنه أصلح من أمر المعاملة السيئة التي كان يلقاها الحجاج، وأنه أنهى تماماً ظاهرة استغلال الحجاج التي كانت سائدة أيام الحكم التركي، ولكن الكل كانوا يعلمون أنه لم يفعل ذلك، وأن معاملة الحجاج السيئة مستمرة، واستغلالهم كذلك مستمر وباق، وقد قام الشريف فعلاً ببعض الإصلاحات، فقد بنى محطة عزل صحي (كرنتينه) وبنى بعض المستشفيات، وغطى بعض مجاري مكة المفتوحة والتي كانت تسبب الكثير من الأمراض، وكان فخوراً بمستشفياته تلك، يراها من أحسن مستشفيات العالم، في حين أنها كانت سيئة للدرجة التي كان الحجاج يفضلون الموت خارجها بدلاً من دخولها.

أما فيما يخص أمر استغلال الحجاج فقد مارسه الشريف بطريقة مجحفة، ففرض على الحجاج ضرائب عدة، منها الضرائب الباهظة التي كان عليهم دفعها للأدلاء، والمطوفين، وحتى على المساكن التي يسكنون فيها، وعلى طعامهم، وشرابهم، وكل ما يحتاجونه، كما أنه زاد من المبالغ المستحقة له على الحجاج، وأصر على دفعها له ذهباً، وأسوأ من كل ذلك، فقد السيطرة على البدو، فبدؤوا يسلبون، وينهبون الحجاج، واتخذوا من بعضهم رهائن في حالات كثيرة، خاصة على طريق مكة- المدينة الذي أصبح غير آمن تماماً، والمحزن في الأمر أن الشريف لم يكن مدركاً لكل هذه الأمور، فقد كان يعيش في وهم، وفي فردوس خيالي أوجده لنفسه بنفسه، وبقي مغروراً يحيط به رجال من بطانته لا يعصون له أمراً، همهم الأوحد إرضاؤه، وإبقاؤه أعمى لايبصر ما يجري حوله، ولا غرابة إذاً إن كان الشريف حسين وهو في وهمه ذاك يظن أن العالم الإسلامي يعيش على إحسانه وإنعامه، في الوقت الذي كان فيه ذلك العالم يرى ويشعر بعكس ذلك تماماً.

هذه السمعة المتدنية للشريف في العالم الإسلامي هي التي أجبرت ابن سعود على التدخل في أمر الحجاز، وملأت نفوس أنصاره السلفيين رغبةً وحماساً زائدين لتخليص الحجاز،من عنت حاكمه، وتحرير أهله من البدع والضلالات المتفشية بينهم، بل إن تلك السمعة السيئة ذاتها هي التي أكدت للكل أن أي هجوم يقوم به ابن سعود على الشريف حسين لن يلقى إلا التأييد والتعضيد.

أما السبب المباشر لذلك الهجوم فقد كان من صنع الشريف نفسه، وذلك عندما أعلن نفسه أثناء زيارة له لشرق الأردن خليفةً للمسلمين في أعقاب

إلغاء كمال أتاتورك- دكتاتور تركيا في فترة ما بعد الحرب- لمنصب الخلافة الإسلامية في عام ١٩٢٤م.

لم يكن قرار الشريف هذا بالقرار الحكيم لسبب بسيط هو أنه ليس بإمكان أي حاكم، أو شخص تعيين نفسه خليفةً للمسلمين، فالخليفة لا ينصب بهذه الطريقة، كما أنه كان واضحاً أن جمهرة المسلمين لن ترضى بادعاء الشريف حسين لهذا المنصب، وأنه سيجعل الفئة القليلة المساندة له تتخلى عنه، وهذا ما حدث فعلاً، ولم يصدق أحد برقيات التهنئة التي كانت تملأ أعمدة صحيفة مكة الأسبوعية[1]، فالكل كانوا يعلمون أن محرر تلك الصحيفة وكاتب مقالاتها المجهول، هو الشريف حسين نفسه. وكانت نتيجة إعلانه لنفسه خليفة للمسلمين أن ضج العالم الإسلامي ضده، ورفض إعلانه هذا، ووضح للجميع جلياً أنه لابد لشخص ما من القيام بخلعه من الحكم، وكان السؤال الملح هو من ذا الذي سيقوم بهذه المهمة؟

كان هذا يحدث، وابن سعود ما زال متردداً في مسألة الاستيلاء على الحجاز، فالحجاز ليس مثل حائل أو الأحساء، وإنما هو عالم آخر، مختلف تماماً عن بقية الأراضي التي سيطر عليها، ثم إن الاستيلاء عليه سيغير وإلى حدٍّ كبير من طبيعة مملكته، وسينهي عزلته، وسيفتح الباب واسعاً أمام المؤثرات الأجنبية التي ستؤثر بدورها على رعاياه، وسيدخله إلى عالم جديد- هو عالم الدبلوماسية العالمية، ففي جدة يوجد القناصل الأجانب الذين يمثلون دولاً إسلامية، وغير إسلامية، مهمتهم رعاية حجاج بلادهم، ومصالحها. وفوق

(١) لعل المؤلف يقصد بذلك جريدة القبلة، التي صدر العدد الأول منها في ١٥ شوال ١٣٣٤هـ (١٩١٥م) إلى أن توقفت عن الصدور في ٢٥ صفر ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م)، إثر دخول الملك عبدالعزيز مكة. وكانت تصدر مرتين في الأسبوع وليس مرة واحدة.

هذا كله فإن الاستيلاء على الحجاز سيحدث تغييرات جوهرية في طبيعة حكمه ودولته الوليدة، وطبيعة رعيته، وستصبح دولة قومية، وسيصير رعاياها شعباً واحداً.

أما السبب الآخر في تأخر مقدم ابن سعود إلى الحجاز، فلعله مرضه، فقد أصاب عينه اليسرى مرض لم يفلح أطباؤه في علاجه، فجاؤوا بطبيب من مصر، ولكن بعد فوات الأوان، فقد استفحل المرض، وأصاب العين العمى. وهي العين التي كان ابن سعود يقفلها دائماً، فتعطي وجهه منظراً غير منظره الحقيقي.

لم يبدأ ابن سعود مسيره نحو الحجاز إلا بعد أن عقد مجلساً من العلماء ووجهاء القوم ترأسه والده الإمام عبدالرحمن الفيصل، وبعد أن أصدر ذلك المجلس رسالة وجهها إلى المسلمين في كل العالم الإسلامي، ينبههم فيها إلى مساوئ حكم الشريف للحجاز، ويندد به وبحكمه، ويعلن أن أنصار الدعوة السلفية سيقومون بالإنابة عن كل المسلمين بمحاولة الإطاحة به وبحكمه، ولكن بعد انقضاء موسم الحج الحالي. وقد وقع على هذه الرسالة الأمير فيصل بن عبدالعزيز على الرغم من صغر سنه. لم تحدث الرسالة صدى في بلدان المسلمين، إذ لم يرد عليها إلا القليل من زعماء المسلمين، غير أن قادة سبعين مليون مسلم في الهند، ردوا بالموافقة على ما جاء فيها ولأنهم كانوا رعايا بريطانيين، فقد أعطت موافقتهم هذه ذريعة لبريطانيا تعللت بها في رفضها مساندة الشريف حسين في صراعه الذي بدأ مع ابن سعود، وكان الشريف يعول على ذلك السند، ويتوقعه.

بدأت المعركة من أجل الحجاز في الطائف، وانتهت هناك، والطائف منتجع صيفي يلجأ إليه الناس من حرِّ جدة ورطوبتها، وكذلك من حرِّ مكة التي تحجب

عنها الجبال المحيطة بها تيارات الهواء البارد. وتقع الطائف في المنطقة الجبلية التي تفصل بين نجد والحجاز، وبدأ تحرك ابن سعود الحربي يوم أن سمح لفرقة من مقاتلي الإخوان بالدخول إلى أراضي الشريف حسين - ولعله كان يريد أن يتأكد إن كانت هذه الفرقة ستجد مقاومة أم لا؟ وفي طريق مسيرها مرت هذه الفرقة بواحة الخرمة حيث انضم إليها أهلها التواقين لحرب الشريف، كما انضم إليها جماعات من البدو، فأصبحت جيشاً كبيراً، ولكنه جيش غير نظامي، وجهته كانت الطائف، وقيادته لأحد قادة الإخوان، ولشيخ واحة الخرمة وعندما قربوا من الطائف، أتتهم الأنباء بأن علي بن الشريف حسين موجود فيها مع بعض قواته، فقرروا مهاجمتها دون انتظار أوامر ابن سعود. وكان هجوماً كاسحاً، هربت على أثره حامية المدينة، وعلى رأسها الأمير علي ابن الشريف . وتبع ذلك أن سلم أهلها بعد أن أمضوا اتفاق هدنة مع قادة الجيش المهاجم والذي دخلها دون مقاومة تذكر.

حدث حادث بعد دخول الجيش الطائف، قيل: إن سببه أن أحد أهالي المدينة الذي لم يكن على علم باتفاق الهدنة، أطلق النار على جيش الإخوان، الأمر الذي أثار بعض أفراد ذلك الجيش، فقاموا ببعض الأعمال الانتقامية ضد أهل الطائف، ويقال: إن الأنباء التي وصلت مكة عن تلك الأعمال أثارت الرعب في أهلها، ففر بعضهم إلى مدينة جدة، التي فر عدد من سكانها بدورهم بحراً إلى مصر، أو إلى أفريقيا، أو إلى الهند. أما الشريف حسين فقد ظل في هذه الأثناء في مكه،معلناً بشجاعة -ولكن في شيء من الحماقة- أنه سيدافع عن المدينة حتى النهاية، ولم يكن يعلم أن جيشه قد تفرق وانفض عنه، فقد تراجع بعض ذلك الجيش إلى الساحل، وفرَّ بعضهم الآخر.

ويقال أيضاً إن ابن سعود حزن حزناً عميقاً لأحداث الطائف، وأرسل إلى قادة جنده، آمراً إياهم ألا يعاودوا مثل هذه الأعمال الانتقامية مرة ثانية، وهدد كل من يخالف أوامره، بالجزاء والعقاب الشديدين. وتلا إصداره لهذه الأوامر تحركه مع قواته الأساسية نحو الحجاز.

اجتمع في مكه حوالي أربعين شخصاً من علمائها، وتجارها، وطلبوا من الشريف حسين رسمياً أن يتنازل عن الحكم لصالح ابنه الأمير علي فوافق على التنازل، ولكنه رفض أن يتنازل لابنه، وبعد أيام قلائل على طلب أهل مكه، وافق على مغادرتها، وعلى مغادرة البلاد كلها، معترفاً بذلك بهزيمته النهائية.

غادرالشريف حسين مكة في موكب من خدمه وحشمه إلى جدة، وقد حاول أن يحيط مغادرته تلك بمظاهر أبهة كاذبة، ثم غادر بعد ذلك جدة، محملاً بأمتعته، وأمواله، والتي: يقال إنه جمعها من المعونات البريطانية له. ومن الضرائب التي كان قد فرضها على الجميع. غادر الشريف إلى ميناء العقبة، ومنها إلى منفاه في جزيرة قبرص، وبعد ست سنوات من بقائه هناك، أصيب بسكتة دماغية، سمح له بعدها بزيارة ابنه عبدالله في شرق الأردن، وكان حتى تلك الحظات، على رغم مرضه، وتقدم سنه، ناقماً على بريطانيا، شاعراً بالمرارة، من جزاء ما لحق به من خيانة. ولم يطل به المقام بعد ذلك، فمات رحمه الله. وكان حتى موته ذاك الرجل العنيد الذي كثيراً ما ضايق عناده كل من حوله من البشر حتى أبنائه، ورغم كل ما قيل عنه وإحقاقاً للحق يمكن القول: إنه بقي حتى النهاية متمسكاً بآماله وتطلعاته، ولا بد من الاعتراف بأنه كان ضحية فترة ترنحت ثم سقطت فيها مبادئ العدالة البريطانية.

استسلمت مكة بهدوء، قبل وصول ابن سعود إليها، أرسل قادة الجيش أربعة من الإخوان – وهم في ملابس الإحرام- إلى داخل مكة، ليعلنوا الأمان لكل من استسلم من أهل المدينة، وفي اليوم الثاني دخلها ألفٌ من الجنود – وهم في ملابس الإحرام أيضاً، ولكنهم كانوا يحملون بنادقهم. (على الرغم من أن التعاليم الإسلامية تمنع المحرم من حمل السلاح) واحتلوا قلعتها، وكانت شوارع مكة خالية، والأسواق مغلقة، والناس باقون في بيوتهم- بعد ذلك بدأ الإخوان يطهرون المدينة المقدسة من كل مظاهر الشرك والبدع التي كانت متفشية فيها. من ضرائح، ومزارات، وقبور في المساجد، وزينات في المساجد، وآلات لهو وموسيقى، وتصاوير، ورسومات إلى آخره، وسرعان ما عادت الحياة إلى طبيعتها، وأدرك المكيون أن خوفهم من الإخوان لم يكن له ما يبرره.

أسبوعان بعد استسلام مكة، وعلى وجه التحديد في يوم ١٣ أكتوبر ١٩٢٤م[١]، دخلها ابن سعود، محرماً، ملبياً «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

(١) الصحيح أن دخول الملك عبدالعزيز مكة كان في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ، الموافق ٤ ديسمبر ١٩٢٤م.

١٣- ملك الحجاز

بعد السيطرة على مكة، وجه ابن سعود انتباهه إلى ميناء جدة، وإلى المدينة المنورة- المدينة المقدسة الثانية، ومرقد الرسول ﷺ، ويقال: إن جماعات من الإخوان حاولت قصف قبة ضريح الرسول الكريم ﷺ، وأن تدخل القناصل الأجانب في جدة هو وحده الذي أوقفهم[١].

كانت تلك هي المرة الأولى التي اتضح فيها أن ابن سعود لا يهمل الرأي الأجنبي، أما المرة الثانية فكانت حينما أحجم عن مهاجمة جدة- على الرغم من وجود علي بن الشريف حسين بداخلها- لمدة عام كامل، بل اكتفى بحصارها، حصاراً شديداً، جعل فقراءها يشحذون الماء، ويبحثون عن حبوب القمح والشعير في روث الخيل.

كان موقف الشريف علي في جدة ضعيفاً، وكان بإمكان ابن سعود أخذ المدينة عنوة، لولا وجود الممثلين والقناصل الأجانب فيها، ولم يكن جيش الشريف علي المتباين على استعدادٍ للقتال، بل إنه لم يكن في الواقع مؤهلاً لذلك، فقد ضم ضمن ما ضم من خليط من البشر، عدداً من الروس البيض الذين قدموا إلى جدة من مصر، وقد تمكن هؤلاء الروس من إصلاح ثلاث طائرات قديمة، كانوا يطيرون بها من وقت لآخر، لقصف مواقع ابن سعود بقنابل من صنع محلي. كذلك كانت للشريف علي بعض عربات مصفحة، قام

---

(١) هذا من الإشاعات التي طافت العالم الإسلامي حين ذاك، كما قد سبقتها إشاعات عندما دخلت المدينة من قبل في حوزة الدولة السعودية الأولى.

بترقيعها، وترميمها أحد السوريين من بقايا شاحنات أمريكية مهجورة، وهناك قصص تروى عن مجموعة من الإخوان المتحمسين الذين رموا بأنفسهم أمام هذه العربات المصفحة، مرات ومرات، حتى عطلتها أشلاؤهم، وأوقفتها عن العمل، وهناك رواية أخرى - ولعلها هي المعقولة- تقول: إن هذه العربات المدرعة لم تجرؤ على الخروج من جدة، اللهم إلا واحدة، عادت وقد مزقتها طلقات بنادق الإخوان وأصابت عين سائقها الروسي، الذي مافتئ يطالب قادته بتعويض عن الأذى الذي أصاب عينه.

والحصار مضروب على جدة، حاول بعض من نصبوا من أنفسهم صناعاً للسلام التوسط بين الشريف علي وابن سعود، وكان من بين أولئك فيلبي الذي كان قد استقال من منصبه كممثل بريطاني لدى الأمير عبدالله، أمير شرق الأردن- وهي الوظيفة التي شغلها لورانس قبله- استقال فيلبي لعدم اتفاقه المستمر مع السياسة البريطانية، ولمعارضته للإمبريالية عموماً. جاء فيلبي إلى جدة طامعاً في الحصول على موافقة ابن سعود على مشروع رحلة اكتشافية كان يود القيام بها في الربع الخالي، تلك الصحراء التي لم تطأها قدم رجل غربي من قبل[1]، ولكنه اضطر إلى تأجيل مشروع رحلته تلك؛ لأن الحكومة البريطانية منعته- عن طريق قنصلها في جدة- من مغادرة المدينة، خوفاً من أن يظنه العرب موظفاً من موظفي الإدارة البريطانية- ولكنه راوغ القنصل، وعصا أوامر حكومته، وغادر جدة، حيث تمكن من لقاء ابن سعود قرب مكة- على أطراف المنطقة المحظورة على غير المسلمين، وكان فيلبي قد وعد الشريف علي بالتوسط لدى الأمير السعودي لقبول شروط صلح لينة، ولكنه

(١) سبق أن ذكرنا أن بيرترام توماس قد سبق فيلبي في عبور الربع الخالي.

وجد أن ابن سعود متشدداً جداً عند لقائه به، وأنه مصمم على عدم بقاء أي فرد من أفراد عائلة الشريف حسين في جدة.

سلّمت المدينة المنورة، وضاق أهل جدة بالحصار، فانقلبوا على الشريف علي، وطلبوا منه مغادرة البلاد، ولم يكن أمامه إلا الرضوخ، والاستسلام لابن سعود- ولكن بشرطين: أن يسمح له ولعائلته بمغادرة جدة بسلام، وأن لا يسمح للإخوان -والذين هابهم أهل جدة- بدخولها... وقبلت شروطه، وغادر على ظهر باخرة حربية بريطانية إلى العراق، مع أخيه فيصل هناك وفي ديسمبر ١٩٢٥م[1]، تسلم ابن سعود مدينة جدة من كبار رجالها. وبذلك أصبحت أملاكه تمتد من الخليج العربي إلى البحر الأحمر، وفي الشهر التالي - يناير ١٩٢٦م نودي به في مكة- ملكاً على الحجاز.

أدرك ابن سعود منذ البداية أن عليه بسط الأمن في البلاد، والحد من غلواء أنصاره من الإخوان المتحمسين المتشددين، وكان عليه فوق هذا وذاك تشجيع المسلمين في كافة أنحاء العالم الإسلامي للحضور إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، فالحج مورد مالي مهم لأهل الحجاز، ولحاكم الحجاز.

تمكن ابن سعود -حاكم الحجاز الجديد- من تأمين البلاد، وتأمين طرق المسافرين في وقت وجيز، وذلك بفضل سياسته الحازمة ضد القبائل التي اعتادت قطع طرق الحجيج، واعتادت السلب والنهب، وسرعان ما عمت صحاري الحجاز سمعة هذا الحاكم الجديد الذي لا يتوانى من الضرب بيد من حديد على العابثين بالقانون، وبأمن البلاد، فأمنت الطرق، وسارت قوافل الحجيج وهي آمنة مطمئنة.

(١) كان تسليم جدة ودخول الملك عبدالعزيز لها في ٨ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ، الموافق ٢٤ ديسمبر ١٩٢٥م.

الأمر الثاني الذي قام به ابن سعود بمعاونة أنصاره الإخوان هو اقتلاع كل مظاهر الشرك والبدع من المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ومن كل أنحاء الحجاز، فهدمت الأضرحة المنتشرة هنا وهناك ما عدا ضريح النبي ﷺ فهُدم مثلاً الضريح الخرافي المنسوب إلى أم البشر حواء، والذي كانت تقصده النساء طلباً للإنجاب، وأمام قبر المصطفى (عليه أفضل الصلاة والسلام) وقف عساكر الإخوان يمنعون الناس من الممارسات الشركية، كالسجود أمامه، أو الدعاء عنده بالأدعية الشركية، ومُنع التدخين في الحجاز، وشرب الخمر، وسماع الموسيقى، ولبس الحرير، والتزين بالذهب، كما أمر الناس بأداء الصلوات الخمس في المساجد، وقام بعض المطاوعة بتعقب المتخلفين عن أدائها، وجالوا بالأزقة والشوارع منادين على الناس بأداء الصلوات في جماعة، حاملين عصيهم الخيزرانية التي كانوا يقرعون بها على أبواب المنازل والشبابيك- كما قامت جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالانتشار في أنحاء الحجاز مؤدية لواجباتها بحماس بالغ.

تقبل أهل الحجاز هذه الإصلاحات والمستجدات في صمت، أما الحجاج والعمار والزوار الوافدين إلى الحجاز، فقد كان لابن سعود معهم شأن آخر، فقد حث الإخوان على عدم التعرض لهم، والتغاضي عن بعض ممارساتهم وأخطائهم الدينية، ومعاملتهم كضيوف عليهم. ومن ثم لم يحدث ما يعكر صفو الحج، والحجاج، إلا تلك الحادثة التي وقعت بسبب المحمل المصري، الذي اعتادت الحكومة المصرية على إرساله كل موسم حج، إلى مكة، حاملاً كسوة الكعبة الشريفة، وشيئاً من المال والطعام لفقراء الحرمين الشريفين، وكانت العادة الجارية أن يأتي المحمل من جدة إلى مكة في معية فرقة عسكرية موسيقية. ولم يكن هذا بالأمر المقبول لابن سعود وجماعته السلفية. فطلب

من الحكومة المصرية عدم إرسال الفرقة الموسيقية مع المحمل. ووافقت الحكومة المصرية على ذلك.

وجاء المحمل في السنة التالية من غير الفرقة الموسيقية، وتم كل شيء بسلام، حتى كانت أيام منى، إذ سمع في يوم من تلك الأيام صوت موسيقى تنبعث من معسكر البعثة المصرية في منى، فانطلق إليهم جماعة من الإخوان طالبين وقف الموسيقى، ولغير سبب واضح، أصاب الجنود المصريين الهلع، فأطلقوا النار على جماعة الإخوان، وقتل عدد منهم، ومن الحجاج أيضاً ، وسرعان ما تدخل الأمير فيصل بن عبدالعزيز وأوقف القتال. أدت هذه الحادثة إلى أن تقطع مصر علاقاتها الدبوماسية مع ابن سعود لمدة عشر سنوات، توقف خلالها إرسال كسوة الكعبة من مصر، مما دعا ابن سعود لإنشاء مصنع تنسج فيه الكسوة في مكة. وكان يقوم بنسجها فنيون من الهند، وعلى الرغم من حادثة المحمل هذه، فقد تناقل المسلمون في كل أنحاء العالم الإسلامي الأنباء بأن الحج أصبح الآن آمناً، وأن طرقه أصبحت آمنة أيضاً، وكانت النتيجة أن أتى إلى مكة في العام الذي تلا سقوط جدة حوالي مئة ألف حاج، وهو عدد لم يسبق لمكة أن شهدت مثله في الماضي، وكانت مستحقات الحج التي دفعها الحجاج في ذلك العام أكبر مبلغ من المال يتسلَّمهُ ابن سعود.

في عام ١٩٢٦م نفسه عقد ابن سعود مؤتمراً إسلامياً في مكة حضره بعض قادة العالم الإسلامي[١]، بغرض مناقشة نوع الحكومة المستقبلية التي ستحكم الحجاز، وقد صرح ابن سعود عدة مرات بأنه سيقبل أي نوع من الحكم يختاره قادة العالم الإسلامي للحجاز، شريطة أن يكون باستطاعة ذلك الحكم بسط

(١) انعقد المؤتمر الإسلامي في ٢٠ ذي القعدة، ١٣٤٤هـ، وحضره مندوبون من حكومات العالم الإسلامي وبعض الشخصيات الإسلامية البارزة.

الأمن في البلاد، بل إنه كتب في رسالة للشريف علي قبل سقوط جدة «فلننتظر قرار العالم الإسلامي، فإذا وقع الاختيار عليك، أو على أي شخص آخر فسنقبل ذلك القرار بسرور بالغ». انعقد المؤتمر الإسلامي في مكة، ولكنه على الرغم من النقد الذي وجهه إلى ابن سعود لقبوله منصب ملك الحجاز، لم ينجح في الاتفاق على نوع الحكومة التي ستحكم الحجاز وانفض دون أن يصل إلى قرار، تاركاً ابن سعود ليحكم الحجاز بمفرده.

تعمد ابن سعود -ملك الحجاز- أن يجتمع بالقناصل الأجانب في جدة، وقد ترك ذلك الاجتماع انطباعاً جيداً في نفوس معظم أولئك القناصل، حيث أبدى بعضهم إعجابهم الشديد به، فمثلاً كتب القنصل الهولندي في مذكراته: «إن ابتسامته -أي ابتسامة ابن سعود- تجعل وجهه يشع شفقة وعطفاً، وإذا ما سكن فإن وجهه يبدو عابساً، متجهماً، ولكن عندما يبتسم يتغير كل شيء، ويبدو جذاباً وساحراً تماماً، ولا بد من الاعتراف بأنه ترك عليّ انطباعاً جيداً وعميقاً» . أما القنصل البريطاني فقد قال عنه :«إن ميزته الكبرى هي حكمته السياسية» كما أن أحد أفراد البعثة البريطانية تحدث عن شجاعته، وحكمته، وتفكيره الهادئ المتزن، وقال: إن إعادة ترسيخه للخلق الإسلامي، والتقاليد العربية كانت هي «ربما أعظم، وأفيد تغيير حدث في الجزيرة العربية منذ ظهور الإسلام».

حكمة ابن سعود، واتزانه، صفات كثيراً ما أعجبت ضيوفه من النصارى، فالحكمة السياسية تتمثل في الحل الوسط، ولكن جماعته من متشددي الإخوان لا تعجبهم الحلول الوسط، ولا تعجبهم التسويات، أي تسوية الأمور سلماً بالتي هي أحسن، فهم يعدون ذلك علامة ضعف واستسلام، وكان واضحاً أن مثل هذا الاتجاه المنشود قد يؤدي في النهاية إلى الاختلاف ثم الانشقاق والانقسام.

وقد بدت بوادر هذا الانقسام بعد سيطرة ابن سعود على الحجاز، إذ إنه بعد تلك السيطرة وضح جلياً أن ممتلكاته قد أصبحت تشمل جزأين مختلفين عن بعضهما تماماً: الجزء الأول صحراوي بدائي، والثاني حضري مدني هو أراضي المسلمين المقدسة المنفتحة، والمتصلة بالعالم الخارجي- وكان لكل جزء نوع من الحكم يناسبه فحكم أهل البادية غير حكم أهل الحضر، وكان أسلوب الحل الوسط، وعدم التشدد هو الذي يناسب أهل الحجاز، في حين أن هذا الأسلوب قد لا يناسب سكان الجزء الصحراوي من ممتلكاته. وكان لا بد من التسامح، ومن الحكمة السياسية في التعامل مع الحجازيين، ومع الوافدين على الحجاز من عمار وحجاج، كما كان لا بد من التعامل مع الدول الأجنبية الممثلة بقناصلها في جدة، تعاملاً جديداً يقوم على أسس ومبادئ هي غير الأسس والمبادئ التي يحكم بها أهل أواسط نجد، وقد تمثلت هذه المرونة في المعاملة مثلاً في تعامل ابن سعود مع تجار «التباكو» في الحجاز وذلك عندما شكوا له من أن منع التدخين أثر على أحوالهم الاقتصادية أثراً سيئاً، وأنه أبقى في مخازنهم كميات هائلة من السجائر والتباكو تقدر بمئات الألوف من الجنيهات.

وقد سمح لهم ابن سعود -تقديراً لظروفهم تلك- ببيع مخزونهم من التباكو بطريقة حصيفة لا تثير الناس عليهم. كما أن ابن سعود بدأ -وحرصاً منه على تأمين سلامة أراضيه، وتماسكها- يستورد بعض المخترعات الحديثة مثل: السلاح، والسيارات، والراديو، وقد ظنها بعض الإخوان محدثات بدعية، آتية من بلاد الكفر، لا يجوز استعمالها.

لقد قام فيلبي بمساعدة ابن سعود نوعاً ما في استيراده لبعض هذه السلع، وكان فيلبي قد ظهر ثانية في جدة بعد سقوطها، ليس كدبلوماسي أو رحالة مكتشف، وإنما كمدير إداري لشركة استيراد أسسها هو وكوكيل لشركة فورد للسيارات وشركة ماركوني للراديو. وعلى الرغم من أن ابن سعود كان على

قناعة تامة بأهمية وفاعلية هذه السلع الأجنبية، كان عليه إقناع المتشددين من العلماء والإخوان بأن امتلاكها، واستعمالها ليس أمراً يحرمه الإسلام.

ويقال إنه نجح في إقناعهم بأن الراديو ليس سلعة شيطانية من عمل الشيطان، حينما أسمعهم بعض آيات القرآن الكريم، وهي تتلى من الراديو، ولكن يبدو أن هذه الرواية التي كثيراً ما يرددها الناس هي من صنع أناس في الغرب الأوربي. وسواء صح هذا القول أم لم يصح، فإن أولئك المتشددين اقتنعوا في النهاية. هذا في الوقت الذي كان فيه فيلبي ناشطاً في بيع سلعه المستوردة لكل من يحتاج إليها. والشيء الوحيد الذي لم يتاجر فيه فيلبي هو السلاح، وفيما عدا ذلك، فقد استورد وتاجر في الفحم، والخيام وحتى عربات الأطفال ، وفوق هذا كله أمر ابن سعود بكل منشآت الراديو لكل من مدن الرياض، ومكة، وجدة، وبأجهزة لاسلكي متحركة، لأخذها معه في الصحراء. كان تجارة فيلبي في بيع السيارات أقل نجاحاً، لأن شركة فورد- التي كان وكيلا لها- قد أوقفت صنع سياراتها من موديل ت .Model. T واستبدلته بنوع آخر لم تستطع إيصاله إلى أسواق جدة في الوقت المناسب. كما أن ابن سعود كان قد سبق واشترى عدداً من سيارات الشيفروليه من وكيل آخر. كما أنه كان قد ورث عدداً آخر من سيارات الشريف حسين.

ومن أجل التوصل إلى أسلوب أمثل لحكم ممتلكاته الحجازية الجديدة، فقد بقي ابن سعود سنتين كاملتين في مكة، لم يهتم فيهما بشؤون الصحراء الوسطى. وقد برهنت الحوادث اللاحقة أن تلك كانت فترة طويلة جداً.

١٤-ثورة الإخوان

الحوادث التاريخية واقعة دائماً لا محالة، ولا مناص من وقوعها وأسباب بعض تلك الحوادث واضحة، ويمكن التعرف عليها بسهولة، ولكن تبقى أسباب بعضها غامضة، وهناك حوادث يمكن للمتأمل العادي أن يتوقع حدوثها دون كبير عناء، لأن أسبابها ليست واضحة، بل بديهية، ومن تلك الحوادث ثورة الإخوان، التي كان يبدو لكل مراقب فطن أنها واقعة لا محالة.

لعل العيب الوحيد الذي لازم حركة الإخوان هو أنها حركة لا تستطيع التوقف، بل إنه لا سبيل لجعلها تتوقف، فهي كالسيارة أو القطار الذي لا كوابح له، يتحرك ثم يسرع في الحركة ولا يتوقف قبل أن يصطدم بشيء ما، فيحطمه، أو ربما حطم نفسه أيضاً، والإخوان كذلك تماماً؛ فهم قوة محاربة لا تلوي في معاركها على شيء. فهي دائماً متقدمة، واثقة من النصر، وحتى وإن كان عدوها أكثر عدداً وعدة، وأمضى سلاحاً، وهي قوة لم تذق طعم الهزيمة إلا مرةً واحدة عندما واجهوا السلاح الناري الحديث في شرق الأردن، ورغم تلك الهزيمة فقد بقي إيمانهم قوياً، ثابتاً لا يتزعزع.

كان إيمان ابن سعود قوياً كذلك، ولكنه لم يكن إيماناً أعمى، فقد كان ابن سعود واعياً ومدركاً أنه إذا ما حدثت مواجهة بين قوات الإخوان، وجيش حديث ذي سلاح حديث، فإن الغلبة لا محالة لذلك الجيش. وكان الإخوان يرون فيه القائد الذي عليه دائماً قيادتهم إلى النصر- ولم يدر بخلد ابن

سعود في يوم من الأيام أن ولاء الإخوان المطلق لقيادته سيجره إلى محنة، وإن تطورات الأحداث ستحتم عليه قريباً الاختيار بين أمرين- أحلاهما مر- وهما: إما أن يقود الإخوان تحت كل الظروف وفي كل المعارك، حتى وإن كانت تلك الظروف ستعني هزيمتهم المؤكدة، وإما أن يحجم عن قيادتهم في مثل تلك الظروف، ويحاول إقناعهم بعدم جدوى القتال فيها، وساعتها سينقلبون عليه، ظانين خطأ أنه قد تخلى عنهم، وعن مبادئهم المشتركة.

كان واضحاً أن حركة الفتح التي قادها الإخوان قد وصلت إلى مداها بعد السيطرة على الحجاز، وأنه لا مجال لنشاطهم الآن بعد الحجاز إلا ضد جيرانهم على ساحل الخليج، أو على أطراف الجزيرة العربية الشمالية- وكل تلك المناطق الواقعة من عدن إلى الكويت، مناطق مرتبطة باتفاقيات حماية مع بريطانيا، أما في الشمال فهناك إمارة شرق الأردن والمملكة العراقية واللتان تحرسهما قوات بريطانية، بحكم انتداب بريطانيا عليهما، ومن ثم فإن أي تحرك أو نشاط للإخوان في تلك الجهات سيوقعهم في مشاكل، وربما صدام مع القوات البريطانية المزودة بأحدث الأسلحة، من طائرات، وعربات مصفحة وما شاكل ذلك، ولن تكون مثل تلك المواجهة في صالحهم مهما كان حماسهم وإيمانهم بمبادئهم تلك، والذي كان على الدوم وراء انتصاراتهم الماضية.

بعد السيطرة على الحجاز، كان هم ابن سعود هو الانصراف إلى أمور الحكم، ولما كان حماس الإخوان الزائد يسبب له بعض المشاكل في الحجاز، فقد أمر برجوعهم إلى صحارى نجد، حيث ظلوا هناك قابعين، راكدين، لا عمل يؤدونه، ولا شاغل يشغلهم، في حين بقي هو مشغولاً عنهم بأمر إدارة الحجاز، ولم يكن هذا الوضع الساكن الهادئ بالوضع المرضي للإخوان بل إنه كان في الواقع وضع ينذر بانفجار وشيك.

وقع ذلك الانفجار أول ما وقع على حدود العراق والتي كانت عبارة عن خط وهمي رسمه كوكس وابن سعود سوياً، وتركزت حوادث ذلك الانفجار حول نشاط قائدين من قادة الإخوان، هما فيصل الدويش، وسلطان بن بجاد، واللذان شاركا ابن سعود معظم معاركه المهمة، فالدويش له دور معلوم في الاستيلاء على بريدة، وحائل، وهو الذي قاد حصار المدينة المنورة، وهو أيضاً الذي كانت له في يوم من الأيام صلات مريبة مع الأتراك، سامحه ابن سعود عليها. أما ابن بجاد فهو الذي قاد الإخوان إلى الطائف، وقاد دخولهم السلمي إلى مكة، وكلا الرجلين، فيصل الدويش، وابن بجاد، شيخان لقبيلتين مهمتين، هما قبيلتا مطير، وعتيبة، وهما -أيضاً- زعيمان لأكبر هجرتين من هجر الإخوان- هما الأرطاوية، والغطغط.

لم يقابل ابن بجاد رجلاً أوربياً في حياته، أما الدويش فقد قابل بعض الإنجليز في آخر أيام حياته عندما كان رجلاً كسيراً مهزوماً، وقد ترك أولئك الإنجليز وصفاً للدويش فقالوا: إنه كان يبدو رجلاً صارماً، صامتاً، وكان قصيراً بدينا، به عرج ربما من جرح قديم، له أنف ورأس كبيران، وأسنان بارزة، وعينان صغيرتان ماكرتان، والدويش رجل قائد له أنصار مخلصون له، يفعلون ما يريد، وهو رجل شجاع، لم يستسلم أبداً إلا لقوة كبيرة قاهرة لم يستطع مقاومتها، ولم يتخل عن مبادئه حتى ساعة موته. قاد قبيلة مطير، ذات السطوة والقوة والكبرياء، وتمثل كبرياؤهم في تقليد غريب فريد: هو قطيع من حوالي ثلثمائة من الإبل السوداء، التي عرفت باسم «الشروق» وقد عُنيت القبيلة بهذه المجموعة عناية فائقة، وكان هو النقطة التي تتجمع حولها في ساعة الحرب، وكانوا يسوقون هذا القطيع أمامهم- دون راكب على ظهور هذه الإبل- إذا خرجوا للقتال، جاعلين من الإبل كتلة متراصة الصفوف تحمي

المحاربين السائرين خلفها، وتفتخر قبيلة مطير بأن المجموعة هذه لم تتعرض لسلب أو نهب من أي عدو، كائنٍ من كان.

كانت منطقة الحدود مع العراق تعج بالمشاكل، مشاكل الغارات القبلية، وكان الخط الذي رسمه كوكس ليفصل بين أراضي ابن سعود والعراق يمر في وسط الصحراء الواقعة إلى الجنوب الغربي من نهر الفرات، موازياً لهذا النهر وعلى بعد حوالي مئة وخمسين ميلاً عنه، وكان غرض كوكس هو أن يبقي رجال قبائل ابن سعود بعيدين عن هذه المناطق الواقعة على شاطئ الفرات، الغنية بزراعتها وخيراتها، وقد نجح كوكس في ذلك، ولكن ترسيم الحدود بهذه الصفة أعطى العراق جزءاً من تلك الصحراء التي لم يكن في حاجة لها، وليست له المقدرة على حكمها.

فأهل العراق حضر مستقرون إلا بعض جماعات من الرعاة الرحل الذين كانوا يرعون ضأنهم في هذا الجزء من الصحراء بعد موسم هطول الأمطار، ثم يعودون ليقضوا موسم الصيف على شواطئ نهر الفرات، أولئك الرعاة لم يكونوا بدواً بمعنى الكلمة، فهم أناس فقراء، رقيقو الحال، بسطاء ومتواضعون، يستعملون الحمير- بدلاً عن الجمال- في ترحالهم، وحمل أمتعتهم... هؤلاء الرعاة الفقراء هم الذين كانوا يتعرضون لغارات الإخوان، وللسلب والنهب والقتل، وقد أدت هذه الغارات إلى مشاكل بين ابن سعود والإدارة البريطانية في العراق، وبينه وبين الإخوان، وزاد من حدة هذه المشاكل أن الحدود بين البلدين أصبحت ملاذاً للقبائل الفارة من الجانب النجدي إلى العراق، وإلى بعض المجرمين الفارين من وجه العدالة أيضاً، وكذلك الفارين من العراق إلى نجد، وكان أولئك اللاجئون إلى منطقة الحدود هذه يسهمون بغاراتهم المتكررة في عدم استقرار الأحوال في تلك الجهات الحدودية.

هذا الوضع على الحدود لم يكن ليزعج حكومة العراق لولا وجود رجل إنجليزي عمل وعاش في أطراف الصحراء العراقية، شبيه بالكابتن وليم شكسبير، ذلك الرجل هو الضابط الإنجليزي الشاب جون جلوب الذي أصبح مشهوراً فيما بعد -جلوب باشا-[1] وكان أيامها يعمل في فيلق شرق الأردن العربي The Arab leagu of Trane Jardan وكانت المهمة الموكلة إلى هذا الضابط مهمة صحراوية غريبة، فقد كان من واجبات سلاح الجو البريطاني هناك القيام بدوريات عسكرية أمنية فوق أراضي العراق بصفة منتظمة، بهدف بسط الأمن وتعزيزه في البلاد، وكانت هناك مجموعة من ضباط الاستخبارات موزعين على نقاط معينة في الصحراء يقومون بمساعدة سلاح الجو البريطاني في مهمته تلك- وكان جلوب هو أحد أولئك الضباط.

انصب اهتمام جلوب في تلك الفترة على حماية رعاة الضأن الرحل - الذين أشرنا إليهم سلفاً- من غارات البدو عامة، ومن غارات الإخوان خاصة، وقد شهد بأم عينه ما فعلته إحدى غارات الإخوان بأولئك الرعاة في يوم عيد الميلاد من عام ١٩٢٤م، من نهب وتقتيل، وإثارة للذعر في أوساطهم، وكيف أن جموع الرعاة فرت أمام الغزاة لا تلوي على شيء إلا النجاة بالنفس من مصير محتوم. قاد تلك الغارة القاسية فيصل الدويش بنفسه، كما قاد بعض أتباعه غارات مماثلة في الجهات الغربية من الصحراء على طول الحدود، وقد تركت دماراً هائلاً وراءها، قُتلَ مئات الرعاة، ونهبت أغنام وممتلكات الآلاف منهم.

حاول جلوب مستعيناً بطائرات سلاح الجو البريطاني التصدي لمثل هذه الغارات، في محاولة لعدم تكرارها، فعل ذلك بعد غارة عام ١٩٢٤م ولكن

(١) غالباً ما يكتب في المصادر العربية غلوب باشا، كما اشتهر عند العرب بأبي حنيك.

القنابل التي أسقطتها الطائرات على قوات الإخوان الراجعة إلى ديارها محملة بالغنائم كانت ذا أثر محدود. استقال جلوب بعد فترة من الجيش البريطاني حيث تحول إلى العمل مع الحكومة العراقية، مواصلاً جهوده الفردية تلك في مقاومة غارات الإخوان، ومحاولة الحد من نشاطهم الحربي في الصحراء العراقية.

ساد الحدود نوع من السلام بعد غارة الإخوان في عام ١٩٢٤م، ولم يكن ذلك الهدوء بسبب جهود جلوب، وإنما كان بفضل سببين:أولهما، أن ابن سعود منع الإخوان من الإغارة على العراق، وثانيهما: أن الدويش كان مشغولاً في حرب الحجاز، وقد انتهز جلوب هذه الفرصة ليبني نظاماً دفاعياً في الصحراء، فأقام معسكراً له في الصحراء، وأنشأ عن طريق الراديو خط اتصال مع سلاح الجو البريطاني، والذي كان أفراده قد بدؤوا القيام بدوريات جوية في الصحراء، كما أنه أقنع الجيش العراقي بإرسال بعض الجنود لإعمار قلعة حدودية قديمة، والتمركز فيها، كما اتخذ من بعض رعاة الضأن عيوناً وجواسيس له ليخطروه بأماكن وجود الرعاة وليقوموا بإنذاره مبكراً باحتمال حدوث الغارات قبل وقوعها.

خلال هذه الفترة بدأت الهوة تتسع بين ابن سعود والإخوان، فقد قام بمنعهم من غزو العراق ليس بسبب قناعته بأنهم سيجدون مقاومة قوية من البريطانيين هناك فحسب، بل ربما لخشية أن تلك الغارات ستثير غضب البريطانيين ومن ثم معارضتهم له في الحجاز.

وسواء كان السبب هذا أو ذاك، فإن منعه للإخوان من مزاولة الغزو كان ذا وقع شديد عليهم، وكان غير مفهوم أو مقبول منهم، وكانوا يتساءلون كيف يمنعهم قائدهم ابن سعود من غزو أهل العراق وهم أهل شرك وبدع؟ وكانوا

يرون أن غزو مثل أولئك القوم أمر واجب، وبدأ بعض الإخوان يتساءل أيضاً إن كان قائدهم -ابن سعود- قد بدأ يتخلى عن مبادئه، وعن دينه ممالأة ومحاباةً لبريطانيا.

كان موقف الإخوان موقفاً متفجراً، في انتظار الشرارة، وكانت تلك الشرارة من صنع جلوب وذلك عندما اقترح على الحكومة العراقية إنشاء مخفر للشرطة في الصحراء، وبالتحديد في موقع آبار يعرف باسم البصية بهدف السيطرة على القبائل، وعلى نشاط القبائل في تلك المنطقة الحدودية. وقد وافقت الحكومة على اقتراح جلوب هذا بعد تردد دام ثمانية عشر شهراً، وقامت بإرسال عدد من العمال للشروع في بناء المخفر. وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقولون.

أرسل ابن سعود اعتراضاً دبلوماسياً على مشروع بناء المخفر، وكان محقاً في ذلك، إذ إن اتفاق الحدود الذي وقعه مع كوكس كان يقضي بعدم إقامة تحصينات على جانبي الحدود- الجانب النجدي، والجانب العراقي، وبعدم استعمال الآبار القريبة من الحدود لأغراض حربية، رد العراقيون على اعتراض ابن سعود بأن المخفر ليس مركزاً حربياً، وإنما هو لاستعمال رجال الشرطة، وليس لأفراد الجيش، وإنه ليس على الحدود، وإنما يبعد عنها ثمانين ميلاً، ولم تكن تلك الحجج التي ساقها العراقيون حججاً مقنعة لا لابن سعود، ولا لرعاياه من الإخوان وغيرهم، فمن منهم يعرف الفرق بين رجال الشرطة، ورجال الجيش، فكلاهما في نظرهم قوات عسكرية، ثم من منهم يفهم، أو يستطيع قياس المسافات على الخرائط فالمنطقة بالنسبة لهم كلها منطقة حدودية بغض النظر عن بعدها أو قربها من خط الحدود الذي هو خط وهمي على كل حال.. وتفاقمت المشكلة، وكان من الممكن أن تسوى سلماً عن طريق

المفاوضات، لولا أن الإخوان كانوا قد ضاقوا ذرعاً بتأني ابن سعود، وأسلوبه السلمي الدبلوماسي لحل هذه الأزمة، وقاموا في يوم من أيام نوفمبر لعام ١٩٢٧، بقيادة فيصل الدويش نفسه بالهجوم على المخفر العراقي الذي كان في طور الإنشاء، وبقتل جميع عمال البناء، وكل رجال الشرطة ماعدا رجل شرطة واحد، هو الذي حمل نبأ هذه الفاجعة إلى السلطات العراقية في الداخل.

كان هذا الهجوم على البصيه نذير حرب، حرب صحراوية شملت أكثر من جانبين، فقد قام الإخوان بالإغارة على المنطقة الحدودية أكثر من مرة، وعلى رعاة الضأن مرات، وكانت الحكومة العراقية تحاول جهدها لحمايتهم، كما كان ابن سعود يواجه الجانبين، فهو تارة يعارض نشاط الإخوان ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وتارة يحتج لدى الحكومة العراقية والبريطانية على تصرفاتها في منطقة الحدود. وفي الوقت الذي كانت فيه كل هذه القوى تتصارع في تلك المنطقة، قام الإخوان بغارة في صحراء الكويت أدخلت شيخها إلى دائرة ذلك الصراع- وبدا واضحاً أن جماعة من الإخوان -هم جماعة الدويش- بدأت تخرج على سلطة ابن سعود- ذلك أنه أرسل- بعد شهر من الهجوم على البصيه -رسالتين- واحدة إلى كوكس، والثانية إلى شيخ الكويت يعترف فيهما بهذه الحقيقة، ويقرر في وضوح أن قوات من الإخوان اعتادت الزحف شمالاً، وممارسة غاراتها هناك، دون إذن منه، بل في مخالفة واضحة لأوامره وقد حدث ما أكد قول ابن سعود هذا، إذ في اليوم نفسه الذي تسلم فيه شيخ الكويت رسالته كان الدويش وجماعته قد عبروا الحدود العراقية مرة ثانية، وقاموا بمذبحة كبيرة في أوساط رعاة الضأن العراقيين وبعد أيام قلائل من هذه الغارة، عبرت مجموعة أخرى من قبيلة الدويش -قبيلة مطير- صحراء الكويت بنية السلب والنهب.

كانت هذه الحرب الصحراوية حرباً مثيرة بالنسبة للطيارين البريطانيين، وبالنسبة لجلوب، ولكنها كانت أيضاً حرباً محبطةً ومخيبةً للآمال، فلم يكن من اليسير على أولئك البريطانيين معرفة وقت، ومكان الغارة التي كان الإخوان ينوون القيام بها، كما أن تعقب الطائرات لهم، وإلقائها للقنابل عليهم لم يكن مجدياً، إضافةً إلى أن تلك الطائرات كانت تتعرض في أحيان لبعض الحوادث، مثل هبوطها الاضطراري في رمال الصحراء، أو حتى تحطمها، وموت بعض الطيارين.

ومن ثم فقد وضح تماماً أن استعمال الطائرات وحده أمر غير كاف، وأنه لا بد من قوة أرضية سريعة الحركة تتعقب غزاة الإخوان في الصحراء -مثل قوة محمولة على السيارات مثلاً- وقد تصادف أنه عندما كان البريطانيون في العراق يقلبون هذه الأفكار، كانت الكويت قد تعرضت لغزو الإخوان، وإن الكويتيين استعملوا عدداً من سيارات الفورد «موديل ت» في تعقبهم للإخوان، وأنهم نجحوا في إلحاق الأذى بهم، واسترداد معظم ما نهبوه من الكويت، وتحكي الروايات أن أحد أحفاد الشيخ مبارك لحق بالإخوان في سيارة مع قلة من رجاله، وأنه وجماعته قاتلوهم ببسالة نادرة، ولم يستسلموا للإخوان إلا عندما نفذت ذخيرتهم، وكان مصيرهم القتل، والمهم في كل ذلك أن عاملاً جديداً قد دخل حرب الصحراء وهو القوات البرية المحمولة على السيارات، وهي قوات سريعة الحركة جداً.

أغرت غارات الدويش الناجحة زميله سلطان بن بجاد، فخرج من دياره غازياً على رأس قوةٍ يقال إنها بلغت اثني عشر ألفاً من الرجال ويقال أيضاً إنه اقترح على الدويش أن يوحدا قواتهما، ثم يعلنان الجهاد على العراق، ولو تم لابن بجاد ما أراد لتمكنت قوات الإخوان من الوصول إلى شواطئ الفرات دون كبير عناء، أما على الجانب العراقي فقد كان جلوب يعزز من دفاعاته انتظاراً

للهجوم وحل موسم الصيف فحالت حرارة الطقس في الصحراء، وندرة المياه فيها دون قيام قوات ابن بجاد بغارتها المرتقبة.

انقضى ذلك الصيف في مفاوضات لم يكتب لها النجاح بين وفود عراقية وبريطانية من جانب، وابن سعود من جانب آخر، وكانت المفاوضات تجري في جدة، بهدف إيجاد حل لمسألة مخافر الشرطة التي بنتها الحكومة العراقية في المنطقة الحدودية خلافاً لاتفاق كوكس وابن سعود، الذي نص على عدم إقامة تحصينات عسكرية على حدود البلدين، وكانت حجة الوفد العراقي - البريطاني هي أن تلك المخافر إنما أنشئت من أجل حماية رعاة الضأن الرحل وغيرهم من القبائل، من هجمات الإخوان، وكان الإخوان أنفسهم يرون في تلك المخافر رمزاً لخضوع قائدهم ابن سعود للبريطانيين وغيرهم من الكفار، في حين كان ابن سعود يعمل جاهداً لإقناع العراقيين لإزالة تلك المخافر لعلمه أنها إذا بقيت فإن الإخوان مهاجموها لا محالة، وإنه إذا ما حدث هذا، فإنه سيعني فقدانه قدراً كبيراً من سيطرته عليهم، إن لم يكن كل سيطرته عليهم، واستمر الجدل دائراً بين الوفود، كلٌّ يحاول إقناع الجانب الآخر دون جدوى، وأخيراً انفضت الاجتماعات، وانتهت المفاوضات إلى لا شيء.. حيث ظلت المخافر قائمة في أمكنتها.

حل شتاء عام ١٩٢٨م والأطراف المتنازعة مصرة على مواقفها، بل بدا أنها مستعدة لخوض مواجهة حاسمة مع بعضها من أجل حل النزاع حلاً نهائياً، وقد اتضح أنه وفي غمرة حماس الإخوان، وحماس قادتهم الديني ذاك، أن بعض أولئك القادة بدأ يتطلع إلى الحصول على السلطة، وعلى القوة السياسية، ولم لا؟ ووراءهم الآف من الأتباع المتحمسين المندفعين، الذين لا يعصون لهم أمراً، ولم لا؟ وهم في الآونة الأخيرة يفعلون ما يريدون، ويقومون

بالإغارة على حدود العراق وعلى حدود الكويت دون إذن من ابن سعود، بل وربما مخالفين لأوامره تماماً. وقد عزز وقوى تلك الرغبة الجامحة في السلطة والحكم انضمام شيخ قبلي ثالث لهم، فقد انضم الشيخ ضيدان بن حثلين، شيخ قبيلة العجمان في إقليم الأحساء، إلى كل من الدويش وابن بجاد، والأمر كذلك لم يكن من غير المحتمل أن هؤلاء الشيوخ الثلاثة الأقوياء قد اتفقوا سراً على الإطاحة بابن سعود، واقتسام البلاد بينهم، وكانت ثقتهم مطلقة في أنهم قادرون على الإطاحة به وسواء أكان ذلك مقصدهم ومبتغاهم أم لم يكن، فقد قر قرارهم وقتئذ على غزو العراق على الرغم من أوامره بعدم الغزو.

نجح جلوب في وقف غزوهم ذاك، إذ إن الأنباء كانت قد جاءته في ديسمبر بأن الدويش يتحرك نحو الحدود العراقية، ولكن اتضح فيما بعد، أن الشيخ الذي تحرك ليس الدويش، وإنما شيخ آخر من شيوخ قبيلة مطير، وإن معه حوالي مئة من رجاله. وقد استطاع جلوب باتباعه خطة محكمة من تفريق شمل تلك المجموعة، وذلك عندما هاجمتهم الطائرات وهم مختبئون قرب أحد الآبار، وكان ذلك الهجوم الجوي بمنزلة الإنذار للإخوان.

المواجهة الثانية التي وقعت بين أولئك الغزاة وبين جلوب كانت فاصلة، ذلك أن ابن حثلين دخل أرض الكويت غازياً فهاجم قبيلة عراقية كانت ترعى هناك، وسلب قطعانها، وقتل عدداً كبيراً من رجالها، كما قُتل في تلك الغارة عن طريق الصدفة رجل أمريكي هو، المنصر هنري بلكوت الذي كان في صحبة المليونير والسفير الأمريكي السابق رتشارد كرين وكانا مسافرين بالسيارة من البصرة إلى الكويت، حينما صادفا تلك الغارة، ونجا كرين الذي سيقدر له أن يؤدي دوراً مهماً في حياة ابن سعود فيما يأتي من زمن.

سار ابن حثلين بقطيعه المسروق بالقرب من الحدود الكويتية العراقية، وهو في طريق عودته إلى دياره، وكان جلوب بهجانته، وسياراته ذات المدافع الرشاشة في انتظاره على الجانب الآخر العراقي من تلك الحدود. وكان عليه أن يعبر الحدود لمهاجمة ابن حثلين، ولكن في اللحظات الأخيرة لم تسمح له السلطات البريطانية في العراق بعبور الحدود، وكان ذلك موقفاً من تلك السلطات مثيراً للسخرية، فالبريطانيون هم الذين رسموا تلك الحدود على الرغم من عدم حاجة الناس إليها. بل إن أولئك السكان لم يكونوا على علم بتلك الحدود- موقعها، وبدايتها ونهايتها، كانت عبارة عن خطوط حمراء أو زرقاء مرسومة على الخرائط، والبريطانيون الذين رسموا تلك الخطوط هم أنفسهم الذين منعوا قواتهم والقوات العراقية العاملة تحت إدارة جلوب من عبورها، ولم يكن هناك أدنى حاجة لمثل هذا التصرف الشكلي الروتيني، الذي اضطر جلوب على أثره بالتقدم بطلب رسمي إلى تلك السلطات بالسماح له بعبور الحدود، ولم يكن من تلك السلطات البريطانية في العراق إلا أن تحول طلبه هذا إلى لندن، حيث تمت موافقة الحكومة البريطانية عليه، ولكن بعد فوات الأوان، فقد كانت قوات ابن حثلين عند ورود موافقة لندن، قد عبرت الحدود، ودخلت إقليم الأحساء، ولم يكن جلوب مفوضاً لتعقبها هناك.

ابتدع جلوب - بعد ذلك- خطة جديدة لحماية رعاة الضأن العراقيين، وذلك بجعل أولئك الرعاة ينصبون خيامهم في صفين متوازين، وأن يجعلوا قطعانهم بينهما، في حين يمدون حبال الخيام بين صفي الخيام، لتكون عائقاً أمام الغزاة الذين غالباً ما يهجمون هجمات سريعة خاطفة- ومثل هذه الخطة ستحرمهم من عنصر المفاجأة ومن تلك الغارات الخاطفة- نجحت هذه

الخطة، إذ إنها جعلت قوات الدويش الزاحفة نحو العراق، تحجم عن مهاجمة الرعاة وهم في مخيمهم المرتب بتلك الطريقة - ولعلمهم أيضاً أن جلوب مستعد لهم بمدافعه الرشاشة المنصوبة في وسط تلك المخيمات، أحجم الدويش عنها وأدرك فاعلية الخطةالدفاعية الجديدة التي ابتدعها جلوب ورجع دون أن يدرك مآربه.

وفي ذلك اليوم نفسه، تعرضت الحدود في الجهة الغربية القصوى لهجوم كاسح من قبل قوة الإخوان قوامها ثلاثة آلاف رجل بقيادة زعيمها ابن حثلين، وكان هدف هذه القوة مهاجمة رعاة الضأن الرحل، ولكنها لم تتمكن من مهاجمتهم، إ ذ إن جلوب كان قد أنذرهم بتقدم قوة ابن حثلين نحوهم، فتمكنوا من الهرب ناجين بأنفسهم وبضأنهم. ولما لم تجد تلك القوة من تهاجمه، انقلبت راجعة، وفي الطريق وجدوا مجموعة من تجار الأحساء معسكرين في تلك المنطقة، فقامت فئة من تلك المجموعة بمهاجمتهم، وسلبهم، وقتل بعضهم، كما أن مجموعة أخرى من قوة ابن حثلين انقلبت وهي في طريق عودتها تهاجم إحدى القبائل البدوية التابعة لابن سعود، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً شهد خراباً، وتدميراً، وتقتيلاً، عاث فيه الإخوان فساداً، وسلباً، ونهباً، وأثارت هذه المذابح التي شملت التجار والبدو، أثارت أهل الصحراء وأهل المدن، فالكل يطلب من ابن سعود تأديب الإخوان، والأخذ بالثأر، فقد مس شر الإخوان بدو ابن سعود، وحضره، وأنذر بأن حركتهم تلك إنما هي ثورة وفوضى.

جمع ابن سعود جيشه وسار به من الرياض مقتفياً أثر قوات الإخوان المتمردة. تقابل الجيشان في يوم ٢٤ مارس ١٩٢٩م على ماء ا لسبلة[١] الواقعة

(١) الصحيح أنها في ٢٩ مارس ١٩٢٩م، وتقابل ١٩ شوال ١٣٤٧هـ.

بالقرب من هجرة الدويش الأرطاوية وعسكرا على بعد أربعة أميال من بعضهما، ابن سعود على رأس قوة كبيرة غير متجانسة، وفي الجانب الآخر الدويش، وابن بجاد ومعهما قواتهما- الكل متحمس، وتواق للقتال، ولكن القادة الثلاثة مترددون.

وبدأت مفاوضات بين الجانبين، مثل الدويش فيها ابنه «عزيز» البالغ من العمر خمسة وعشرين عاما، في عنفوان الشباب، وهو وسيم محبوب من الجميع، كما يدل على ذلك اسمه «عزيز» شاب شهم، ومغوار أمير من أمراء الصحراء، له كل ميزات أمرائها.

تركزت المفاوضات في السبلة على المطالب القديمة وهي مطالبة زعماء الإخوان بالسماح لهم بمهاجمة وتدمير الحصون القائمة على الحدود العراقية، ثم مطالبتهم لابن سعود بالتخلي عن اختراعات الكفار التي اتخذها- كالسيارات، والتليفونات والراديو، وكان رد ابن سعود أنه مستعد للتخلي عنها إذا ما تخلى الإخوان عن بنادقهم، وذخيرتهم لأنها هي أيضاً من صنع الكفار، ولكن الناظر إلى معارضة الإخوان لمثل هذه المخترعات ليدرك أنها ليست معارضة لذات تلك المخترعات، وإنما لعلمهم أنها اختراعات ستقضي في النهاية على أسس حياتهم التقليدية التي ألفوها وفهموها، وإدراكهم أيضاً أنه ليس في مقدورهم التحكم في تلك المخترعات، أو السيطرة عليها، وستكون لها الهيمنة عليهم، بل إنهم سيكونون تحت هيمنة ورحمة كل من يستطيع التحكم فيها.

لم تفض مفاوضات ابن سعود، وعزيز بن الدويش إلى اتفاق، ولكنها أدت إلى ظهور خلاف بين الدويش، وحليفه ابن بجاد، إذ إن عزيزاً كان قد أقنع والده بالتحدث مباشرة إلى ابن سعود، في حين أن ابن بجاد رفض مقابلة ابن

سعود إلا في ساحة المعركة، وقد تم فعلاً اجتماع الدويش بابن سعود في خيمةٍ نصبت أمام معسكر ابن سعود، واستمر اجتماعهما طيلة الليل.

ويقال إن ابن بجاد حاول أن يقنع «عزيز» بأن ابن سعود قد اختطف والده، واقترح عليه أن تقوم قواتهما بهجوم ليلي مباغت على الخيمة، فتقتل ابن سعود، وتنقذ والده ويقال إن «عزيز» رفض الانقياد لاقتراحه هذا، ولو قبل، وتم ذلك الهجوم، وقتل ابن سعود، لانفرط عقد المملكة ولانتهى أمرها إلى الأبد.

ظل الدويش وابن سعود يتحدثان، ويتناقشان الليل كله، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يجتمع فيها ابن سعود إلى ثائر متمرد، وكان كلما عقد مثل هذا الاجتماع ، خرج منه منتصراً، وهكذا كان أمره مع الدويش، فقد استطاع أن يقنعه بأن يتخلى عن تمرده ، ويبقى كما كان في السابق على ولائه له، وفي الصباح غادر الدويش الخيمة بعد أن وعد بأن يعيش في سلام مع ابن سعود، بل وبأن يحاول إقناع حليفه ابن بجاد بالعودة إلى طاعة ابن سعود، ووعد بأنه إذا فشل في إقناع ابن بجاد فسيتركه، ويعود إلى هجرته الأرطاوية، ومن المفترض أن ابن سعود وعده بالمقابل بالعفو عنه، وإبقائه شيخاً لقبيلة مطير.

رفض ابن بجاد عرض حليفه الدويش، وظل مصراً على موقفه لا يتزحزح عنه، وهو عدم لقاء ابن سعود إلا على أرض المعركة، ولعل السبب في إصراره هذا هو أنه رجل صحراوي- بدوي- ذو طبيعة صحراوية لا تعرف المساومة، أو ربما لظنه أن ابن سعود لن يغفر له ما قام به، وأنه سيحنث بوعده يوماً، ويقتله، ومهما كانت أسباب رفضه، فقد أرسل الدويش إلى ابن سعود يخبره برفض ابن بجاد للصلح وأنه -أي الدويش- قرر البقاء إلى جانبه وعدم العودة إلى الأرطاوية -كما وعد سابقاً- وكانت هذه الرسالة هي نذير الحرب، ذلك

أن ابن سعود بدأ- بعد أن شاور العلماء وحصل على موافقتهم- استعداده للمعركة.

معركة السبلة التي دارت في يوم ٢٩ مارس ١٩٢٩م[١] كانت آخر معركة أمر فيها ابن سعود جيشه بالهجوم، وكانت آخر المعارك البدوية الكبرى قبل أن تدخل الأسلحة الحديثة حرب الصحراء، كانت معركة نموذجية، لا مثيل لها، وتميزت بأن جماعات المشاة كانت أكثر من الجماعات الراكبة في كلا الجانبين، وكانت قوات ابن سعود مكونة من قواته البدوية، وقوات حضرية، جُندت من المدن والبلدات. وكانت قوات الإخوان مكونة من الزراع من الهجر. تقدم جيش ابن سعود - في وسطه المشاه، وعلى جانبيه الخيالة، وفي مؤخرته الهجانة. وتقدمت قوات الإخوان، والتحم الجيشان، وتقاتلا قتال المعارك البدوية التقليدية- استعملوا البنادق، ثم السيوف، أرض المعركة يملؤها الغبار المتصاعد من حركة المتقاتلين، وتملؤها صيحات الحرب، وقعقعة السلاح.

لم تكن معركة السبلة ككل المعارك، فلم يكن القتال فيها من أجل سبب واحد، وإنما كانت هناك عدة أسباب للقتال، فلكل فئة أسبابها للقتال، فأهل الحضر الذين كانوا ضمن قوات ابن سعود كانوا يحاربون انتقاماً لدماء زملائهم تجار الأحساء الذين سفكت دماءهم جماعة من الإخوان قرب الحدود العراقية، أما الإخوان فكانوا يرونها حرباً مقدرةً من عند الله، أما البدو فكانت لهم أسبابهم الخاصة التي يقاتلون من أجلها، وللدويش بدت الحرب وكأنها بمنزلة إصدار حكم عليه، ولابن بجاد كانت الحرب آخر فرصة لتسنم الحكم والسلطة السياسية، أما عزيز فقد كانت الحرب بالنسبة له كارثة. أياً

(١) الصحيح أنها دارت في ١٩ شوال ١٣٤٧هـ، الموافق ٢٩-٣٠ مارس ١٩٢٩م.

كان الخاسر فيها، وحتى ابن سعود نفسه لم يكن بإمكانه إعطاء سبب واحد لخوض تلك الحرب، فهو يحارب من أجل الحفاظ على سلطانه، وكذلك للدفاع عن مبادئه في مقابل تفسيرات زائفة لها، أصر عليها الإخوان، ثم هو يحارب ليمنع عن نفسه وعن الإخوان غضب بريطانيا، وتلك كلها أسباب مباشرة كان ابن سعود يقاتل من أجلها، ولابن سعود أيضاً أسباب على المدى البعيد -إن شئت قلت أسباب غير مباشرة- فهو يحارب مثلاً حتى لا تبقى الجزيرة العربية راكدة جامدة، لا تعرف التطور والتحديث، كما أراد لها الإخوان، فهو يريدها متطورة، لأن بقاءها على حالها، تعيش في كنف الماضي السحيق، سيجعل العرب، وسيبقيهم في مؤخرة الركب، وسيفقدهم أسس الحياة المستقلة الكريمة، وكأنما أريد لمعركة السبلة أن تقرر إن كانت الجزيرة العربية ستتقهقر إلى الخلف، وتتقوقع، أم ستتطور، وتسير إلى الأمام مع مسيرة الحضارة الإنسانية العامة.

استمر القتال في معركة السبلة خمس عشرة دقيقة، شأنها شأن المعارك البدوية الأخرى، ففي تلك المعارك يتوقف القتال إذا ما نفدت ذخيرة المتحاربين، أو إذا أدركهم الإرهاق، وقد انجلت المعركة بعد هذا الالتحام، والقتال السريع -عن تفرق الإخوان وفرارهم، ذلك أنه على الرغم من تنظيمهم الأحسن، فإن قوات ابن سعود كانت قد فاقتهم عدداً.

فر ابن بجاد، وأصيب الدويش في بطنه إصابة بالغة، وحمل جريحاً من أرض المعركة وتفرقت قواتهما في الصحراء، وتوقف القتال، بعد أن أفتى العلماء بوجوب توقفه.

طلب الدويش الجريح قبول استسلامه، وذلك بإرساله نساءه وهن محجبات إلى خيمة ابن سعود لطلب حمايته لهن، وبعد أن شاور ابن سعود

العلماء في شروط الصلح، أفتى العلماء أولاً بضرورة توقف القتال، وبأنه على الدويش وقبيلته تسليم الغنائم التي كانوا قد غنموها من قبل، وتسليم بنادقهم، وخيلهم، وجمالهم، وعلى «عزيز» ابن الدويش تسليم نفسه على أن يضمن له ابن سعود حياته، أما الدويش فعليه تسليم نفسه دونما قيد أو شرط.

وعليه وبموجب شروط هذا الصلح أُتِيَ بالدويش وهو محمول على نعش، ليسلم نفسه، وكان يبدو عليه أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، وفي مشهد درامي مؤثر عفا عنه ابن سعود وأرسله مع زوجاته إلى موطنه ليموت هناك في سلام، وهناك من يقول. إن عفو ابن سعود عن الدويش كان الغرض منه إغراء ابن بجاد بالاستسلام، والواقع أن ابن بجاد سلم للأمير عبدالله أخي ابن سعود، وذلك عندما أرسله هذا الأخير إلى هجرة الغطغط - وبعد استسلامه سويت تلك الهجرة بالأرض وتفرق أهلها في البلاد، وأودع ابن بجاد سجن الرياض، وقد حول إلى سجن الهفوف - إلى قبو تحت الأرض كان الأتراك يتخذونه سجناً- وذلك عندما جرت محاولة لتهريبه من السجن- وقد بقي في سجنه ذاك حتى أدركته المنية، أما الدويش فلم يمت بسبب جراحه الخطيرة، وإنما تعافى منها، وعاد لمزاولة نشاطه الماضي، غازياً بنفسه هنا وهناك، أو مرسلاً ابنه «عزيز» ليغزو بدلاً عنه في بعض الأحيان.

قام «عزيز» في صيف ١٩٢٩م بغزوةٍ جريئة، وصل فيها إلى حدود إمارة شرقي الأردن، وجرأة تلك الغزوة أنها تمت وحر الصيف على أشده، وقد قطع خلالها عزيز وصحبه الستمائة مسافة خمسمائة ميل كاملة- أوصلتهم شمالي حائل، حتى الحدود الأردنية حيث استولوا هناك على عدد كبير من الجمال، وروعوا الأهالي، وكان عليه في طريق عودتهم أن يسلكوا الطرق التي بها آبار، الأمر الذي مكن حاكم ابن سعود من التحرك من حائل شمالاً، وإقامة حراسة

من قواته على كل تلك الآبار حتى لا يتمكن عزيز وجماعته من ورودها. وقد كان لهم ما أرادوا، إذ كان كلما اقترب عزيز ورجاله من أحد تلك الآبار وجدوها محروسة، فابتعدوا عنها، دون أن يرتووا من مائها، وعندما اشتد بهم العطش في أحد أيام أغسطس الحارة، اضطروا إلى مهاجمة حراس إحدى تلك الآبار، ودارت معركة عنيفة بينهم وبين الحراس، مات فيها عدد كبير من رجال عزيز العطاش، ولم يبق من الستمائة الذين كانوا معه إلا ثمانية وثلاثين رجلاً، ومات من الحراس المدافعين عن البئر عدد كبير أيضاً، ولكنهم نجحوا في منع عزيز ومن بقي من جماعته، من الوصول إلى البئر، فانسحب مع بعض حراسه، ليموتوا عطشاً في الصحراء، وقد وجدت جثته بعد شهرين في رمال الصحراء، على الطريق المؤدي إلى بلده.

لم تنه معركة السبلة الثورة، ذلك أن منطقة الأحساء شهدت حدثاً آخر ذلك الصيف تسبب في إثارة جموع الإخوان من جديد وقيامهم بالثورة مرة ثانية تلك الحادثة هي اغتيال ضيدان بن حثلين أحد زعماء التمرد الثلاثة- بطريقة لا تمت إلى العرف والشهامة البدويين بصلة، فقد اغتيل ابن حثلين على يد فهد بن جلوي- الابن الأكبر لحاكم الهفوف، وتفاصيل ذلك هو أن ابن حثلين لم يكن قد اشترك في معركة السبلة، ولكن ابن جلوي -حاكم الهفوف- أرسل وبأمر ابن سعود ابنه فهداً على رأس جيش، لملاقاة ابن حثلين وإقناعه طوعاً أو كرها بتجديد وتأكيد ولائه لابن سعود، ولما اقترب الجيشان من بعضهما أرسل فهد إلى ابن حثلين يدعوه لملاقاته والحديث معه، وقال البعض إنه أرسل إليه رسالةً يعطيه فيها الأمان، قبل ابن حثلين الدعوة، وذهب إلى خيمة فهد، حيث تحادثا، وشربا القهوة سوياً، ولكنه عندما أراد الانصراف،

انقض عليه الحراس، وقيدوه بالسلاسل، ووصل النبأ إلى معسكر ابن حثلين، فتجمع حوالي ألف وخمسمائة من رجال قبيلة العجمان، وهاجموا معسكر فهد أثناء الليل، باحثين عن زعيمهم ابن حثلين، ودارت معركة عنيفة بينهم، وبين رجال فهد، ولكن عندما رأى هذا أن الدائرة بدأت تدور على رجاله، أمر بقطع عنق ابن حثلين، فقطعت، ثم حاول فهد الفرار، ولكن أحد حراسه أطلق عليه النار، وأرداه قتيلاً.

انتشر خبر هذه الحادثة المفجعة في الصحراء، فكان وقعها كبيراً. وعلى الرغم من أنها كانت نتيجة مباشرة لسوء تصرف فهد بن جلوي، إلا أن بعض رجال القبائل، حمل ابن سعود، شيئاً من تبعتها، ففهد هو فهد بن جلوي- ابن حاكم الهفوف والذي هو بدوره ابن عم ابن سعود، ومن ثم اعتقد أولئك أن لابن سعود بعض المسؤولية فيما حدث.

ثارت قبيلة العجمان لمقتل زعيمها، وانضم إليها فيصل الدويش بخمسة آلاف من مقاتليه، واشتعلت نار الثورة من جديد في كل الجزء الشمالي الشرقي من البلاد، ومرة أخرى قام الإخوان يغيرون هنا وهناك، ويثيرون الرعب في النفوس، ولكنهم كانوا في هذه المرة محاطين بقوات معادية لهم من كل جانب، ففي العراق كان جلوب على أهبة الاستعداد لمواجهتهم، ومطاردتهم إذا ما هم تجرؤوا، وعبروا الحدود العراقية، وكانت قواته مزودة بسيارات عليها المدافع الرشاشة، وجنده بسلاح ناري قاتل، وفي الكويت كانت بريطانيا تقف منهم موقفاً عدائيا، فها هي تحذر شيخ الكويت من أن يبيع لهم السلاح، كما كان يفعل في الماضي، بل إنها مضت أبعد من ذلك حينما منعته من أن يمنحهم حق اللجوء إذا ما لجؤوا إلى أراضيه، كما أن سلاح الجو البريطاني كان قد بدأ يهتم بحرب الصحراء، ويوليها عناية أكبر، فها

هو يرسل إلى الصحراء وحدة كاملة بكل طائراتها، وعرباتها المدرعة تحت قيادة ضابط كبير، مهمتها حراسة الصحراء العراقية من تجاوزات وغارات الإخوان.

وفي مثل هذه الأحوال ، لم يكن أمام الإخوان المتمردين فرصة للتراجع نحو المناطق الشمالية، وكانت قوات ابن سعود تتجمع لملاقاتهم من الجنوب والغرب، كما كان حكام الهفوف، وحائل مستعدين بكل قواتهم في الميدان، وفوق كل هذا كان ابن سعود وهو في مكة، يستعد استعداداً هائلاً، للمعركة القادمة مع الإخوان. فبعد أن رأى فاعلية استعمال السيارات في معركة شيخ الكويت ضد الإخوان، وفاعليتها في دوريات جلوب في الحدود العراقية، قرر استعمال تلك الوسيلة نفسها، وبدأ يجمع كل ما وقعت عليه يداه من سيارات وشاحنات، وأضاف إليها ما ورثه عن الشريف حسين من سيارات، والسيارات التي كان قد اشتراها هو جمعها كلها، وسافر بها إلى الرياض، ومنها إلى منطقة التمرد في إقليم الأحساء.

تستحق حملة ابن سعود هذه أن تقارن بحملة هانيبال التي عبر فيها جبال الألب، فكما عبر هانيبال تلك الجبال في ظروف مناخية -ظروف البرد والجليد- لا تلائم الأفيال التي استعملها في ذلك العبور، كذلك عبر ابن سعود مسافة سبعمائة ميل من الأراضي الصحراوية بسيارات ضعيفة لا يلائمها جو الصحراء الحار، ولا رمالها الهشة التي يغوص فيها كل شيء.

وصلت تلك السيارات إلى الأحساء بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة، وهي في حالة يرثى لها، ولكن ابن سعود أصر على وضع بعض من جنده فيها ببنادقهم، استعداداً للمعركة، وكان هذا تكتيكاً جديداً، غير وللأبد استراتيجية الحرب في الصحراء.

أدرك الإخوان المتمردون أن معركتهم خاسرة، وبدأ اليأس يدب إلى نفوسهم، وبدأت روحهم المعنوية تهبط، خاصة زعيمهم الدويش، والذي كان لموت ابنه عزيز بتلك الصفة، أثر كبير عليه، ثم إنه أدرك ساعتها أن الأعداء يحيطون به وبجماعته من كل جانب، ولا غرو أن بدأ يشعر باليأس، وأن معركته معركة خاسرة حتى قبل أن يخوضها، الأمر الذي يتجه في محاولة يائسة إلى الكويت في محاولة لمقابلة شيخها، ومقابلة الوكيل السياسي البريطاني فيها، وعندما وصل الكويت فوجئ برفضهما مقابلته، بل إنهما أمراه بمغادرة الكويت، وقبل أن يغادرها أرسل رسالة إلى الوكيل البريطاني مستفسراً منه، بأنه إذا ما اتجه لمحاربة ابن سعود، وترك نساءه، وإبله وماشيته في منطقة الحدود، فهل بإمكان البريطانيين أن يعدوه أن لا يتعرضوا لهم، ويقصفوهم بالقنابل، وهل سيسمحون لهم بدخول أراضي الكويت إذا ما تعرضوا لهجوم من أي جهة أخرى؟ وكان رد الوكيل البريطاني - بتوجيه من حكومته البريطانية- سلبياً على استفسارات الدويش، فزاد ذلك من شعوره باليأس،رجع الدويش بعد ذلك إلى رجاله، ونصحهم بتركه، وبمسالمة ابن سعود. ويتساءل البعض عن أسباب هذا اليأس الذي ألم فجأةً بالدويش، هل هو إدراكه بأن معركته خاسرة، وأن الظروف من حوله كلها ضده؟ أم هو حزنه العميق على موت ابنه عزيز المأساوي ذاك؟ أم هو فشله في إيجاد مأوى آمن لنسائه وأطفاله الصغار؟ أم هو إدراكه أخيراً أن ابن سعود على حق، وأن الإخوان على باطل في تمردهم عليه؟

والأمر الغريب أن الدويش اتجه وهو في حالة يائسة تلك إلى «الكفار» إلى البريطانيين طالباً منهم المساعدة والنصح، ولم يتجه إلى أحد إخوانه العرب أو المسلمين، اتجه الدويش أول ما اتجه إلى هـ. ديكسون الوكيل البريطاني في

الكويت، الذي خلف نوكس، واتجه فيما بعد إلى جلوب طالباً الحماية، ولكن كلا الرجلين رفضا إعطاءه الحماية تنفيذاً لأوامر حكومتهما التي وعدت ابن سعود بعدم إيواء المتمردين عليه، رفض ديكسون حماية الدويش، رغم حبه الجم لعرب الصحراء، وللصحراء ذاتها، كان ديكسون محباً للبدو البسطاء ولحياتهم البسيطة الخالية من كل تعقيد. وكان كلما وجد فرصةً أخذ زوجته وطفليه إلى الصحراء ، حيث يضرب خيمتهم في وسط البدو، يعيش معهم في انسجام عائلي حميم، كما لم يفعل أوروبي من قبله، وقد علل ديكسون حبه للبدو هذا، بأنه كان قد ولد في سوريا، وأن مرضعته كانت امرأةً بدوية، كان تعاطفه هذا مع البدو أمراً مهماً، في المراحل الأخيرة من ثورة الإخوان، فهو الذي أعاد إلى أهل الصحراء السكينة والسلام.

بعد عدائه الشديد لجلوب وجد الدويش نفسه مضطراً إلى طلب حمايته، ولكنه -وكما قلنا- لم يستطع منحه تلك الحماية، والحال هكذا عبر بعض الشيوخ الموالين للدويش حدود العراق، ورفضوا الرجوع إلى ديارهم، بل إنهم سلموا أسلحتهم لجلوب، وحاول البعض الآخر الهروب ناحية الجنوب، خوفاً من جيش ابن سعود المتقدم نحوهم. أما الدويش فقد ظل قابعاً في منطقة الحدود، تتعرض قطعانه وأبله لهجمات وسلب من بعض القبائل، وأخيراً وفي يناير ١٩٣٠م[١]، اندفع الدويش بمن بقي معه من رجاله، ونسائهم، وقطعانهم نحو الكويت، فدخلوها عندما سمعوا أن ابن سعود يتقدم نحوهم على رأس جيش كبير، كان جلوب يتتبع تحركاتهم تلك بعربات سلاح الجو البريطاني المدرعة. ويحكي جلوب كيف أن وجدهم في حالة سيئة، مقهورين، منهزمين، لا

(١) الموافق ٢٨ شعبان ١٣٤٨هـ، وهو اليوم الذي تم فيه تسليم الدويش إلى الملك عبدالعزيز، ثم نقله إلى الرياض.

يدرون إلى أي مكان يتجهون- كل همهم الهرب شمالاً بعيداً عن يد ابن سعود، كانوا في حالة يرثى لها.

جاء ديكسون من الكويت متتبعاً لهم أيضاً، وكان في زي البدو، فهاله حالهم اليائس البائس، فاجتمع بالدويش وطلب منه أن يستسلم إلى سلاح الجو البريطاني- إذ لم يكن بإمكانه هو منحه الحماية، وأوضح ديكسون للدويش أنه ليس باستطاعته السماح لرجاله المتمردين بالبقاء في أرض الكويت، وذلك خوفاً من أن ابن سعود قد يدخل الكويت في تتبعه لهم، وقد تدور حرب بينه وبين المتمردين في أرض الكويت، وديكسون وحكومته لا يريدون ذلك، كل ذلك وديكسون يحاول إقناع الدويش بالاستسلام لسلاح الجو البريطاني، ورفض الدويش أول الأمر فكرة الاستسلام هذه ، ولكن بعد أن رأى أن ديكسون قد نجح في إقناع بعض قادته بالاستسلام، رجع الدويش عن رأيه وسلم نفسه إلى قائد معسكر القوات الجوية البريطانية، سلم ذلك المحارب الصحراوي الجسور نفسه وسلاحه، حيث رحل من هناك إلى البصرة، وقبل ذهابه إلى البصرة أخبر الدويش ديكسون بأنه يترك نساءه في ذمته، وتحت حمايته الشخصية.

كان هذا السبيل هو أحسن السبل- وربما السبيل الوحيد- لإنهاء الثورة، وقد اهتم البريطانيون بعد ذلك بمحاولة إنقاذ حياة الدويش، في الوقت الذي كانت زوجة ديكسون تقوم برعاية عائلة الدويش- والذين كانوا حوالي سبعة وثلاثين فرداً: زوجته، بناته، إخوانه، وأقربائه، كانوا جميعاً في حالة يرثى لها، جائعين، ليس معهم من الكساء والغطاء إلا النزر اليسير، فأطعمتهم، السيدة ديكسون، وكستهم، وقامت بسد حاجاتهم كلها. سافر ديكسون واثنين من كبار

الضباط البريطانيين جواً لمقابلة ابن سعود، فوجدوه ميالاً للتسامح، والصفح، وكان شرطه الوحيد هو أن يسلم المتمردون له كل ممتلكاتهم، وكل ما غنموه، واعداً أن يبقي على حياتهم، وأن لا يشتد في معاقبتهم، كما أنه قبل بأن يعوض قبائل العراق والكويت عن كل ما سلب منهم، وأن يدفع لهم مقدماً، مبلغ عشرة آلاف جنيه.

ووفقاً لذلك، وضع ديكسون الدويش مع اثنين من قادته في طائرة أوصلتهم إلى معسكر ابن سعود، كان ديكسون معهم على متن الطائرة نفسها، وقد روى فيما بعد أن الدموع سالت من عيني ابن سعود عندما قبله أولئك السجناء، لم يقتل ابن سعود الدويش كما توقع البعض، وإنما أودعه سجن الرياض، كما قام بمصادرة إبل الثوار، وخيلهم، وكدليل على بسط سلطته على قبيلة مطير فقد صادر قطيعهم المقدس- الإبل السوداء، وضمها إلى قطيعه، وهي حتى اليوم باقية ضمن قطيع آل سعود.

مات الدويش في سجنه بعد عام من استسلامه على إثر نزيف في حلقه، وربما كان ناتجاً عن مرض سرطاني[1]، وعندما شعر بدنو أجله أرسل رسالة إلى ابن سعود، لا ليطلب عفوه، وإنما ليمنح عفوه هو عن ابن سعود (أي ليمنح الأمير عفوه هو).

(١) كانت وفاته كما أشار دكسون في ٣ أكتوبر ١٩٣٠م، الموافق ١٠ جمادى الأولى ١٣٤٩هـ، في سجنه بالمصمك، انظر الكويت وجاراتها، ص٤١٥.